بحث عام | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 09 ديسمبر 2016

المنهج الفلسفي عند وليام جيمس

سفيان البطل
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016
All rights reserved © 2016

الملخص:

يتأسَّس مشروع **وليام جيمس**[1] William james البراغماتي على التمييز بين أمرين هما: معرفة الشيء قبل معرفته بما هو عليه، وبين فلسفة معرفة الشيء من حيث هي البحث عمَّا هو أعمق في شكلها الواقعي. من هنا يكون مشروع البراغماتيَّة هو مدار نظريَّة المعنى أو مبادئ البراغماتيَّة. إذ أنَّ كلَّ حقيقة مرتبطة بزمانها وشروطها كأداة لبقاء المعارف والتصورات عن طريق صياغة الفكرة كبنية شعوريَّة وفكريَّة[2].

ومن ثمَّة صاغ **وليام جيمس** تعريفه للفلسفة من حيث هي تمثل الحياة عن طريق فكرة المزاج كمكون لرؤية للعالم، فالمزاج منفذ لتجاوز المذهب العقلي والتجريبي، بل يعني أكثر من ذلك فكّ الصراع بين العلم والدين. لا شك أنَّ فكرة البراغماتيَّة لم تتأسس عند وليام جيمس إلا من خلال الحوار مع تاريخ الفلسفة، أي الحوار مع ليبنتز Leibniz وكانط Kant وهيغل Hegel وقبلهم أفلاطون Platon ...، وهو الأمر الذي جعل البراغماتيَّة نتيجة بحث في الدين وماهيته.

فهل يعني هذا أنَّ هيغل مثلاً يلائم تصورات وليام جيمس في بنائه للحقيقة أكثر من أفلاطون وكانط، من حيث إنَّه يؤسس لحقيقة مرتبطة بالتجربة والتاريخ وصيرورته؟ فالحقيقة مرتبطة بمنطق الوجود أو بمنطق التناقض الذي من وسائله النفي والإثبات، الإيجاب والسلب، أليس هذا الأمر كافياً للقول إنَّ أطروحة هيغل أقرب إلى أطروحة وليام جيمس، هذا الأخير الذي جعل التجربة والخبرة وربط الأفكار بالحياة المدخل الأساسي لبناء تصوره للمعرفة والحقيقة؟ مع العلم أنَّ هيغل يربط المعرفة الخالصة بروح المطلق بجدليَّة فينومينولوجيَّة تجعله يقدّم نفسه من الوعي بالمحدوس إلى الوعي المجرَّد، فالروح قد وصل إلى أن يعثر على ذاته، إنَّه هو، وإنَّه أيضاً من أجل ذاته هو، إنَّها الحقيقة التي تختلف عن تصور وليام جيمس، لأنَّها تجمع بين القضية ونقيضها لتخلص في النهاية إلى تركيب تصبح الروح هي المطلق لتحقق وعيها بالذات[3].

---

1. وليم جيمس (11 يناير 1842 - 26 أغسطس 1910) فيلسوف أمريكي، من رواد علم النفس الحديث. كان في بداية أمره يهتم بالفلسفة لاعتبارين: علمي وديني. ينكر النظريَّة التي دعاها التجريبيَّة الأصليَّة، وكان أحد ثلاثة من زعماء النظريَّة المسماة البراغماتيَّة أو الأداتيَّة. وقد قادته دراسته للطب إلى بناء رؤية ماديَّة للمعرفة والشعور، نشرت نظريته في التجريبيَّة الأصليَّة لأول مرة سنة 1904 م في مقال بعنوان: "هل الشعور موجود؟" وقد كان الغرض الرئيس لهذا المبحث إنكار كون العلاقة بين الذات والموضوع علاقة أساسيَّة. انظر تاريخ الفلسفة الغربية، راسل (برتراند)، ترجمة فتحي شنيطي، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، سنة 1977، الصفحة 464 - 466.

2. Consider Davidson, Donald's view in his article truth and meaning: «but the difficutlies are theoretical, not pra - tical. In application, the trouble is to get a theory that comes close to working; anyone can tell whether it is right. One can see why this is so ». (Sep., 1967), published by: Springer, Vol. 17, No. 3, page 311.

3. راسل (برتراند)، ترجمة فتحي شنيطي، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، سنة 1977، الصفحة 357.

- «الفكرة المطلقة، الفكرة كتوحيد للفكرة الذاتيَّة، والفكرة الموضوعيَّة هي تصور الفكرة، وهو تصور موضوعه الفكرة من حيث هي كذلك، ومن أجله يكون موضوعي هو الفكرة، موضوع يشتمل على كلّ الخصائص المميزة في وحدته»، المرجع السابق، الصفحة 357.

تعتبر البراغماتيَّة ذات اتجاه منهجي أكثر من كونه اتجاهاً نظرياً، أعني البحث في الحقيقة والتصور دون الانحياز إلى هذا القول أو ذاك. إنَّه رغم اعتراف وليام جيمس بمجهودات الفلاسفة المتقدمين في بناء مشروع البراغماتيَّة، فإنَّ هؤلاء حسب رأيه لم يأخذوا منها إلا جزءاً بسيطاً، لأنَّها مرتبطة بالزمن المعاصر وتحولاته الفلسفيَّة والمنهجيَّة الراهنة، فالحقيقة مثلاً تؤخذ اليوم بمعناها المتعدد والمختلف وفي إطار الوحدة والتباين.

إنَّ التجربة أيضاً لها دور كبير في تطوير مشروع البراغماتيَّة عند **وليام جيمس**[4] التي تعني أحداث الواقع الراهن، في حين الخبرة هي المعطيات المؤسسة على معارف قديمة، والذي يجمع بينهما هو الماهيَّة في إدراك وحدة العالم ووجوده. كلُّ ذلك من شأنه أن يؤكد لنا أنَّ البراغماتيَّة تنبني على تعدُّد الأنماط للعالم. فالعالم أجزاء متعدّدة تحتاج إلى فرضية البراغماتيَّة التي تقول المعرفة لا تنمو من لا شيء، بل على العكس من ذلك، فالماضي كائن في الحاضر، وهذا دليل على تفاعل أجزاء العالم في إطار تصور البداهة والحقيقة وتقريبهما بأساليب عقلانيَّة ملائمة.

4. Galetic, Stéphan, Théorie et pratique chez William James, Université de Liège, Bulletin d'analyse phénoménologique, IV 3, 2008 (Actes 1), page 52.

1 - أسس الفكر البراغماتي

تبدأ محاولة الفيلسوف الأمريكي **وليام جيمس** في مشروعه البراغماتي بالبحث في الإنسان ومشكلة الفلسفة، إذ يؤكد **هوسرل** بهذا الخصوص أطروحة جيمس التي من خلالها تنبع كلّ الاقتراحات النظريَّة من التجربة، وزيادة على هذا لأنَّ هذه النظرية، البراغماتية، لها علاقة بالموضوعات الإنسانيَّة التي ترتبط بالحياة[5]. وبشكل عام، فإنَّ كلاً من **هوسرل ووليام جيمس** يربطان المناهج العلميَّة للإنسان بالحياة التي هي المصدر الأساسي لانتقاء الدلالات والمعاني. إلا أنَّ **هوسرل** له تفسير تكويني لصيرورة تكوينيَّة لا تكفي لتأسيس نظريَّة المعرفة، بل يجب التفكير أيضاً في المحور الأساسي لهذه التركيبات المتعلقة بالذات العاقلة[6].

لكنَّ هذه المحاولة أوَّل ما تبدأ به السعي لمعرفة ما عبَّر عنه **كانط** معرفة الأشياء في حدودها. إذن، بما أنَّ الفلسفة هي طريقة تفكير تهتمُّ بربط الأشياء مع بعضها بعضاً لتخلق لنا الانسجام في الواقع ولتكشف لنا عن حقيقة ما، يحث **وليام جيمس** على ضرورة معرفة فلسفة الشيء أولاً قبل معرفته هو بما هو عليه، ذلك أنَّ الفرق بين معرفة الشيء بما هو عليه فيه دعوى بالأخذ به كنتيجة وكمعطى جاهز، ومن ثمَّة فإنَّ تبني الأفكار سيكون دون إعادة فحص فحواها ومعرفة مدى قابليتها لخدمة الواقع. لكن بمعرفة فلسفة الشيء فأنت تبحث فيما هو أعمق، أي في الشيء القابل لأن يقدّم لنا معرفة في شكلها البنائي والتحليلي والواقعي (أي سياقها الواقعي). هذا الأمر هو ما سيمدُّنا بالقدرة على استيعابها واستيعاب ظروف إنتاجها لتكون ممكنة التصديق والتطبيق لحد ما. من ثمَّة كانت قيمة البراغماتيَّة في بحثها في المعنى وفي الحقيقة[7].

تتمركز فكرة البراغماتيَّة حسب رأي **Henrik Rydenflet** عند **وليام جيمس** على سؤال أساسي هو: أيّ فرق يقع بالنسبة إلى أيّ شخص -عملياً- إذا كانت فكرة ما بدلاً من فكرة أخرى صحيحة؟

5. Leclercq, Bruno, Phénoménologie et pragmatisme: y a-t-il rupture ou continuité entre attitudes théoriques et attitudes pratiques? Université de Liège, Bulletin d'analyse phénoménologique IV 3, 2008 (Actes 1), page 120.

6. ibid, page 111.

7. «"What Pragmatism Means" william james distinguishes two different but interrelated stands of pragmatism: a theory of meaning and theory of truth», Rydenfelt, Henrik, MEANING AND PRAGMATISM, James on the pragmatic consequences of belief, (DRAFT-May 2008), page 2.

من المؤكد أنَّ البراغماتيَّة تحتاج لتبدأ بتحرّي فهمنا الأولي والسابق لتعريفنا للمبدأ (concept) أو الفكرة (conception)[8]. ورغم ذلك، فلا «اسم» أو «كلمة» محضة تستطيع نهائياً الجواب عن السؤال المطروح عن المعنى الذي لأفكارنا. ولمعرفة ماذا تعني أفكارنا نحن في حاجة لأن نتتبع بشكل خاص النتائج العمليَّة المتحققة منها. بمعنى أن يقع لنا تحت أيدينا القدرة على اقتفاء أثر أفكارنا وما تؤدي إليه من نتائج. وفي حالة إذا اختلف تعبيران لفظياً، كاختلاف فكرتين أو نظريتين لكنَّهما في الأخير خلصتا للنتيجة نفسها، أي للتأثير العملي نفسه، فهُمَا إذن الأمر نفسه، لكنَّ المبدأ الذي انطلاقتا منه صيغ بطريقة مختلفة، لكن في حالة إذا ما لم يكن أثر عملي يحملُ على الفكرة ممكن الاقتفاء والتتبع، فالفكرة ها هنا ليست ذات معنى[9].

وبالتالي تكون هذه أولى بوادر التفكير النقدي عند **وليام جيمس** التي طبَّقها في مشروعه البراغماتي، ذلك أنَّ لكل حقيقة زمانها وشروط إنتاجها، لكنَّ الوعي بالظروف التي خلقتها لنا سيجعل من هذه الحقيقة أو المعرفة أداة ووسيلة لبناء معارف أخرى وتطويرها، وهذا الأمر لا يتمُّ بالتفكير على أنَّ هناك حقيقة كليَّة أو فلسفة كليَّة، بل إنَّ **وليام جيمس** يدعو ويدافع عن الطرح الذي ينادي بالتعدُّد، فهو يجعل لكلّ فرد فلسفته وهذه الفلسفة رهينة بنمط تفكير الفرد وطريقة تحديده لها في عالم يسكنه التعدُّد، «**إذن، فالبحث عن معايير هو جزء من محاولة أعمّ للتفكير في العالم أو الذات البشريَّة باعتبارهما يملكان طبيعة جوهريَّة أو ماهيَّة، أي أنَّهما نتيجة لمحاولة تفضيل لغة واحدة من بين لغات أخرى اعتدنا أن نصف بها أنفسنا أو العالم**»[10].

---

8. «What is a conception? It is a teleological instrument. It is a partial aspect of a thing which for our purpose we regard as its essential aspect, as the représentative of the entire thing … the right conception for the philosopher depends then on his interests ». Evans, David H., william faulkner, william james, and the american pragmatic tradition, southern literary studies, Fred Hobson, Series Editor, louisiana state university press, 2008, page 85.

- Consider Henrik Rydenfelt's view in his article Meaning and Pragmatism (2008): « the task of the jamesian pragmatist is to find out not only how philosophical conceptions, assumed as beliefs, would influence our conduct, but also to investigate the practical bearings of these conceptions in what we may expect to occur in experience ». Page 9.

9. من جهة ثانية نجد أنَّ Henrik Rydenfelt يستحضر في مقاله Meaning and Pragmatism (May-2008) شخصية أخرى تغني عمله ومكملة لقول وليام جيمس، كما هي أحياناً منتقدة له، هذه الشخصية تدعى Lovejoy حيث أفاد في القول بأيّ معنى تكون أفكارنا مفيدة؟ وهو يجعلها كذلك إذا حققت شرطين بالنسبة إليه: الأول إذا كانت الفكرة تتعلق بتجربة مستقبليَّة ممكنة الاختبار بعد، مع شخص ما، بغض النظر سواء أكانت هذه الفكرة مسلماً بها أم غير ذلك.

أمَّا الثانية فحسب Lovejoy الفكرة تكون مفيدة إذا كان الاعتقاد في هذه الفكرة سيقود إلى اختبار تجارب أخرى. ومنه فهو يجعل من الفكرة الأولى معياراً يقينياً وجدَّ محدود، بينما الثانية معيار جدّ شامل للعقيدة التي تستطيع إنكار معنى حقيقي للفكرة مهما كان أي إنسان اختار أن يؤمن بها. انظر الصفحة 3.

10. مشروحي (الذهبي)، أطروحة دكتوراه بعنوان: النزعة البراغماتيَّة الجديدة عند رورتي، تحت إشراف محمد سبيلا، جامعة محمد الخامس، كليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، الرباط، شعبة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس، وحدة الحداثة وقضايا الإنسان المعاصر، سنة 2004، الصفحة 155.

- «هكذا يرى رورتي أنَّ الحقيقة لا يمكن أن تكون ما ورائية، ولا يمكن أن توجد باستقلاليَّة عن العقل البشري، لأنَّ العبارات لا يمكن أن توجد في الماوراء لكنَّ تعريفاته لا تنتمي إلى هذا العالم» المرجع أعلاه، الصفحة 156.

كيف يُعرِّف **وليام جيمس** الفلسفة؟ يقول: «**الفلسفة ... وإنَّما هي، على نحو ما، شعورنا الأبكم الصموت بماذا تعني الحياة بكلّ أمانة وعمق**»[11]. إنَّنا من خلال هذا القول ندرك مدى عبقريَّة **وليام جيمس** حيث مزج الفلسفة بأدوات علم النفس، بل إنَّه انطلق للدفاع عن قضايا فلسفيَّة بعدما تحصلت له معرفة كبيرة بالحياة النفسيَّة للأفراد وشكل هذه الحياة في الواقع. إنَّه هنا كما صوَّر لنا إصبع أرسطو الذي يشير إلى الأسفل بمعنى الانطلاق من الواقع أو من الأرض التي تحت أقدامنا لفهم ما هو أبعد بعد ذلك[12].

وعند الوقوف على التعريف البراغماتي للفلسفة نرى أنَّ **وليام جيمس** يجعلها متعدّدة كامنة فينا، وهي ليست نخبويَّة، إنَّها دفقة شعوريَّة ولبنة فكريَّة. الفلسفة هي طريقتنا ونظرتنا للحياة وكيف نريد أن نحياها.

إنَّها تلك التي نريد أن نحياها ولا تستوعبها لغة في نطاق الكون الذي فسَّره **وليام جيمس** بجملتين: «**شيء لا مأرب فيه ولا نفع للقريحة الأستاذيَّة**»[13]. إنَّه يجعل الفلسفة نظرة للحياة بكلّ ممكناتها، لكنَّ هذه النظرة يجب أن تتسم بنوع من الرضا ليعرف الناظر شيئاً من الاستقرار النفسي فتكون الحياة بهذا الشكل فيها ما يستحق العمل عليه والبقاء من أجله «**إنَّ نتائج الفلسفة تهمّنا جميعاً إلى أقصى درجة من الحيويَّة والجوهريَّة، وأشدّ حجج الفلسفة غرابة تدغدغ إحساسنا بالعمق والحذق والرفاهة**»[14].

إذن، الفلسفة قد تكون دليل الحائر، لكنَّ الشكل الذي تتخذه يحقر ويدنس من قيمتها إنَّها «**أسمى المساعي الإنسانيَّة، وهي أشدُّها تفاهة وإهمالاً في آن**»[15]. لماذا هي كذلك؟ لأنَّها تبحث في صورة الوجود ونسيت الموجود، بحثت في فكر الموجود وتغاضت عن النظر في كيف يعيش هذا الموجود.

بمعنى آخر، إنَّ الإنسان يسعى إلى تحقيق الكمال والخلاص لنفسه، لكن في هذا السعي ينسى ذاته. إنَّه كمن يفكر في الوجود وينسى أنَّه جزء من هذا الوجود المفكّر فيه، ولهذا كان سعي الشخص في التنظير لتصور يوحّد الوجودية جمعاء أكثر الأمور وأشدّها بلغة جيمس **تفاهة** (كموضوع) **وإهمالاً** (كذات) **في آن.** ومع هذا فهو يعترف بقيمة الفلسفة الحقيقيَّة، وهذه القيمة يجب أن ترتبط أساساً بما يحقق المنفعة.

---

11. جيمس (وليام)، البراجماتيَّة، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة 2008، الصفحة 16.

12. The word "philosophy", derives etymologically from the ancient Greek terms for love (philos) and wisdom (sophia) and thus means the "love of wisdom". From the pre-Socratics to plato, the word 'wisdom' had a unified notion: "the understanding of the ultimate principles of things that works as guide to truly live an exemlary life". Ortiz, Claudia Alvarez, does philosophy improve critical thinking skills? Submitted in tottal fulfilment of the requirement of the degree of Master of Arts, Department of philosophy-Faculty of Arts, the University of Melbourne. February 2007 page 5.

13. جيمس (وليام)، البراجماتيَّة، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة 2008، الصفحة 17.

14. المصدر نفسه، الصفحة 18.

15. المصدر نفسه، الصفحة 18.

يعتبر **وليام جيمس** تاريخ الفلسفة هو تاريخ صدام الأفكار، وانطلاقاً من رؤيته هاته سيسعى لتفسير أسبابه، إنَّه صدام «المزاج» بكلّ اختصار، يقول: «**وأيًّا يكن مزاج الفيلسوف المحترف، فإنَّه يحاول عندما يتفلسف أن يواري حقيقة مزاجه ويسترها**»[16]. وبما أنَّ المزاج ليس من دواعي التعقل فإنَّ عمل أو جدّة فيلسوف ما بهذا الشكل ستكون ذات صبغة استنتاجيَّة لا أكثر، ثمَّ يكسوها ببنية ما تمهّد له نظرة للكون/الواقع المعاش أكثر انسياقاً مع العاطفة «**إنَّه يعوّل على مزاجه ويثق به. ولكونه يريد عالماً يتفق ومزاجه، فهو مؤمن بأيّ تمثيل للكون يتفق معه فعلاً**»[17].

لكنَّ مشكلة أصحاب هذا الموقف الذين يعتمدون على «المزاج» تكون النتيجة أنَّه عندما تدرج ما هو ذاتي فيما هو موضوعي تخرج عمَّا هو فلسفي موضوعي إلى ما هو ذوقي ذاتي، وهذا خطأ. لأنَّ صاحب «المزاج» في الأخير لن يستطيع أن يدافع عن تصوراته والاعتماد عليها في ساحة النقاش والجدل، لأنَّ النقاش هنا أساساً لا يتسم بطابع فلسفي تماماً. ومن هنا جعل **وليام جيمس** شرط الوضوح والإبانة هو كسر لبنية (الذات الواحدة المالكة للمعرفة)، ومنه نفهم انتقاده الموجَّه ضد أفلاطون ولوك وهيجل ... وغيرهم. وبناءً على ما سبق فإنَّ فرصتنا في معرفة آفاق ذواتنا في ظلّ تبنينا لأطروحات وأنساق فلسفيَّة ذات وزن تكون شبه مستحيلة.

يقول **وليام جيمس**: «**ونحن لا نكاد نعرف تفضيلاتنا الذاتيَّة في المسائل التجريبيَّة، وبعضنا يعدل عنها بسهولة وينتهي باتباع الطراز السائد أو الانسياق وراء معتقدات أكثر الفلاسفة وزناً وتأثيراً في الجيرة التي نعيش فيها، أيًّا ما كان هذا الفيلسوف**»[18].

هكذا تكون الفلسفة رؤية الفرد للأشياء كما هي هذه الرؤية، أي رؤيته هو الخاصة، لكَّن هذه الرؤية لا يمكن أن نصفها أو نطبع عليها طابع «الحقيقة»، بل هي مجرد «اعتقاد» يحتمل أن يكون صادقاً أو كاذباً. وهذا ما قصده المفكر الأمريكي **Vincent Ryan Ruggiero حينما قال**:

«**فكرة أنَّ كلَّ «شخص يخلق حقيقته الخاصة» أضحت أمراً مضحكاً، نحن نقوم بخلق شيء ما أي بإبداعه، حسناً، لكنَّ هذا الإبداع ليس حقيقة، بل هو مجرد اعتقاد. أفكار نقبلها كحقيقة لكن من الممكن بسهولة تبيان أن تكون خاطئة**»[19].

16. المصدر نفسه، الصفحة 19.
17. المصدر نفسه، الصفحة 20.
18. المصدر نفسه، الصفحة 21.
19. Ruggiero (Vincent Ryan), Beyound Feelings, a guide to critical thinking, Ninth Edition, published by McGraw-Hill, New York 2012, page 37.

ومن هنا كان الانتقال الذي قام به **وليام جيمس** للتمييز بين أصحاب المذهب العقلي والمذهب التجريبي، لينتهي إلى أنَّ أصل الخلاف بين هذين المذهبين هو ذو طبيعة دينيَّة، معترفاً بأنَّ الرؤية المزاجيَّة[20] التي تحدثنا عنها سابقاً ستكون لها قيمة مهمَّة في تاريخ عقائد الإنسان.

يعني بـ «التجريبي» من يحب الحقائق التي خضعت للاختبار، أمَّا «العقلي» فهو من يهتمُّ بالمبادئ العامة والصور المجرَّدة أكثر من أي شيء آخر، وما دام الإنسان لا يعيش بدون المبادئ والوقائع إذاً الخلاف الذي يدور بين هذين المذهبين هو فقط في مركز الاهتمام. وبالتالي يكون القصد أنَّ كلاً من «العقلي» و«التجريبي» يتناولان موضوعات الوجود انطلاقاً ممَّا يمدّنا به العقل وما استوحاه من الخارج، ولهذا المعنى الاختلافي مآل واحد هو أنَّه ذو طبيعة مزاجيَّة، لذلك قال الفيلسوف: «**وليس ثمَّة سبب يدعونا لافتراض أنَّ هذه الرؤية المزاجيَّة القويَّة لن يكون لها وزن ولا حساب من الآن فصاعداً في تاريخ عقائد الإنسان**»[21]. هكذا نخلص إلى أنَّ العالم واحد ومتعدّد؛ الأمر ينطوي فقط على الطريقة التي ننظر بها إليه، لكن يجب ألَّا نجعل من هذا سبباً للمزج بين المتناقضات، حتى وإن كانت، لأنَّ التناقض والتضاد وجد ليكون جزءاً من كلّي ويساهم في معرفة هذا الكلّي، وبالتركيز على هذه النقطة يمكن أن نصبو إلى تفادي عدم الثبات والتذبذب في معتقدنا والتميز بصحوة فكريّة حسنة.

بالرغم من أنَّنا نسلّم بقوة الحقائق الأمر الذي يجعلنا نبدو ماديين أكثر، إلا أنَّ هذا لا ينقص من قوة حضور الأثر الديني، بل إنَّنا نجد في لحظة ما **وليام جيمس** يجعل العلمي والديني في خانة واحدة تتكامل فيها هاتان الوحدتان، الأمر الذي يفيد أنَّ العلم ليس من طبيعته التشكيك في المعتقد الديني، بل إنَّه في الأصل يخدم ما نؤمن به، والفيلسوف الحق هو الذي يؤدي به بحثه في الحقائق إلى هذه النتيجة.

«الاعتقاد المنطقي بكلّ بساطة هو اعتقاد للسبب الأفضل المعطى، الاعتقاد المنطقي هو ممكن التبرير بشكل عقلاني، قد يبدو هذا الاعتقاد العقلاني يحتلُّ مكانة أفضل ليتجلَّى كحقيقة بدلاً من أن يكون العكس، كذلك بالنسبة إلى أيّ شخص مهتم بحقيقة اعتقاده يجب أن يهتم بمدى معقوليَّة اعتقاده»[22].

---

20. Galetic, Stéphan, Théorie et pratique chez William James, Université de Liège, Bulletin d'analyse phénom - nologique IV 3, 2008 (Actes 1).

- «بعض التصورات للإله، الروح أو الجوهر تؤخذ دلالتها من النزعة والتوجه الذي يحكم تفكيرنا، هذه الاعتبارات أو التصورات خاصة فكرة الميل تتأسس على معنى هذا التصور. وهذا ما أوضحه جيمس في مبادئ علم النفس». المرجع أعلاه، الصفحة 61.

21. جيمس (وليام)، البراجماتيَّة، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة 2008، الصفحة 22.

22. Consider BEARDSLEY Monroe C and Elizabeth Lane, «a reasonable belief is simply a belief for wich a good reason can be given. Reasonable beliefs are logically justifiable. It would seem that a belief that is reasonable stands a better chance of being true than one that is not, so anyone who is interested in truth of his beliefs should be concerned about their reasonableness». Philosophical Thinking an Introduction, Harcourt, Brace and World, Inc 1965, Printed in USA, page 1.

فأيّ فلسفة هذه التي نحن بصددها التي تخدم حاجاتنا؟ إنَّها بالطبع ليست فلسفة تجريبيَّة، لأنَّ في هذا النوع من الفلسفات نجد الصراع بين العلم والدين، حيث تعلو قيمة العلم وتصغر أهميَّة الإنسان. وأنَّها أيضاً ليست فلسفة دينيَّة تتسم إمَّا بطابع تطرفي يعيش الحاضر بعنف أو بطابع قهقري يعيش الماضي ويقفز على الحاضر.

يقول **وليام جيمس**: «**وإنّي لأعني بالجناح الأكثر تطرفاً من الفلسفة الدينيَّة، ما يطلق عليه المذهب المثالي التجريدي [...] وقد أثرت هذه الفلسفة تأثيراً عظيماً في طائفة البروتستانت [...] وهي فلسفة أحديَّة تقول بوحدة الوجود الأحدي.**

[...] ولقد اعتدنا معشر الفلاسفة لمدة طويلة أن نسمّي هذا المذهب فيما بيننا بفلسفة المدرسة الأسكوتلنديَّة. إنَّها ما عنيته بالفلسفة التي تتَّسم بطابع من يحارب متراجعاً القهقرى ناكصاً على عقبيه في بطء»[23].

إنَّنا لا نسعى في أن نختزل في إحدى الفلسفتين، بل إنَّ الأسوء هو أنَّه مهما حاولنا جاهدين الهروب من فلسفة ما انخرطنا في غيرها لا تقلّ عن سابقتها في جهد الفكر والروح والجسد. إنَّنا في هروبنا هذا نفقد الصلة بالأجزاء الملموسة والمحسوسة من الحياة، ومن ثمَّة كان غرضنا ومبتغانا من الفلسفة التي نريد تلك التي لا تحدث ارتباطاً إيجابياً بالتأكيد بهذا العالم الواقعي والحقيقي، إنَّنا في حاجة لفلسفة تجمع بين «**الولاء العلمي للحقائق، والرغبة في إدخالها في الحساب والتقدير والتدبير وروح الملاءمة والتكيف، بالاختصار، وكذلك أيضاً اليقين القديم في القيم الإنسانيَّة والتلقائيَّة المحصلة سواء أكانت من النوع الديني أم من النوع الرومانتيكي**»[24].

عالم الفلسفة ليس عالماً بسيطاً خالياً من متناقضات الحياة، من هنا كانت مُعضِلتنا التي تطرح نفسها بين إمَّا مع التجريبيَّة أو الفلسفة العقليَّة، دينيَّة، التي لا ارتباط لها بالحقائق الماديَّة، ولهذا حاول **وليام جيمس** معالجة المشكل بفتحنا على آفاق أرحب وهي تقبّل الذات وتقبّل المحيط في شكله العميق والواسع والمتعدد، وعلى هذا الأساس رفض المفاهيم التي تميز أصحاب المذهب العقلي مثل (التنقية أو التصفية) لكونها تختزل العالم وتشوّهه، لأنَّ من شأن هذه المفاهيم أن تحيل إلى ضرورة الحاجة إلى تطهيره، لأنَّه مكان مدنَّس، وهذه النظرة الأحاديَّة التشاؤميَّة تقتل في الوجود كلَّ ما هو سامٍ فيه، وهو أنَّه موسوم بالتعدُّد والاختبار. من هذا

23. جيمس (وليام)، البراجماتيَّة، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة 2008، الصفحة 32- 33.

24. المصدر نفسه، الصفحة 35.

المنطلق كان نقد أصحاب المذهب التجريبي للعقليين، ذلك أنَّ التجريبيين مدركون للتعدّد الذي يسكن الوجود بتعدُّد ظواهره وأحداثه.

من هنا خلص الفيلسوف البراغماتي إلى نتيجة مهمة، ألا وهي أنَّ الإيمان بشيء ما يفقدنا الإيمان بغيره، تماماً كإيماننا بالحياة الأخرويَّة. فإيماننا بها يفقد هذه الحياة الدنيويَّة لذتها والهدف من عيشها، ذلك أنَّها تصبح فكرة صغيرة إذا قورنت بالحياة الأخرى بشكل أو بآخر، أو أنَّنا نجعل الحياة الدنيويَّة مصبَّ اهتمام كسبيل الوصول للحياة الأخرويَّة. إنَّ الذي لا نعرفه عن الكون هو أنَّه أكبر بكثير ممَّا نعرفه عنه، فإذا وضعنا تقابلاً بين هاتين الحياتين، عاد بالضرورة سلباً على أحدهما، والأرجح تكون هذه العودة على الحياة المعيشة، وهذا هو أحد الأمور التي سقط فيها أصحاب المذهب العقلاني، ونخص بالذكر **ليبنتز Leibniz** الذي يقول: «**وعلاوة على ذلك، فحيث إنَّه ليس هناك سبب يدعو إلى افتراض وجود نجوم في كلّ مكان، أفلا يمكن أن يكون هناك فضاء كبير وراء منطقة النجوم؟ وأنَّ هذا الفضاء هائل، المحيط بكلّ هذه المنطقة ... قد يكون زاخراً بالسعادة والجلال.**

والآن ما مصير اعتبارنا لأرضنا وقاطنيها؟ أفلا تتضاءل وتتصاغر إلى شيء لا يعدو نقطة طبيعيَّة، حيث إنَّ أرضنا ليست سوى نقطة بالقياس إلى بعد النجوم الثابتة. ومن ثمَّ فإنَّ جزء الكون الذي نعرفه يكاد يكون ضائعاً في العدم إذا قورن بالجزء الذي لا نعرفه»[25].

على هذا الأساس انتقد **وليام جيمس ليبنتز** Leibniz بوصف إدراكه للحقيقة والواقع بالإدراك الواهن، لأنَّه تماماً كباقي أصحاب المذهب العقلي يريد إخضاع كلّ شيء للنظام، وهاته العملية تجعل الكون مغلقاً، في حين أنَّه مفتوح. وهو يفهم سبب قول **ليبنتز** Leibniz هذا لأنَّه يستند إلى الأصل على تقابلات وعبارات من شأنها أن تخلق نوعاً من الانسجام على مسامع المرء، لكنَّها في العمق عكس كذلك. إنَّ عمل **ليبنتز** في هذا المستوى الذي هو متصل بعملي يحاول أن يمهد طريقاً للإيمان في قطيعة مع العلم. لكنَّ هذا لا يعني أن نسقط حكم قيمة على **ليبنتز** ونحكم على مشروعه بالفشل، هذه ليست وظيفتنا. لكنَّ المشكلة المطروحة هنا هي أنَّ الفيلسوف الأمريكي **وليام جيمس** لاحظ شيئاً من الاغتراب بين الفلسفة والحياة الإنسانيَّة، ولاحظ أنَّ الصراع بين المذهبين المذكورين كيف ينعكس سلباً على التفكير القويم والصائب، بحيث يفضي إلى غير مآل. ولهذا جعل **وليام جيمس** الحقيقة ترتبط بالاتصال المباشر بالحياة، وهذا النوع من الحقيقة تختصُّ به الفئة التي تفكر في صمت، وتشعر في صمت، إنَّهم أولئك الذين يعيشون ويشعرون.

يتضح لنا بعد هذا الطرح أنَّ البراغماتيَّة جاءت بعد بحث في الدين وماهيته التي تظلّ تخدم الإنسان في كلّ مكان وزمان، شريطة ألا يكون مختزلاً في نمط معيَّن، ما هو هذا الدين؟ «**إنَّه يشبه الماشي وهو نائم،**

25. المصدر نفسه، الصفحة 41 - 42.

الذي يعتبر الأشياء الحقيقيَّة بالنسبة إليه ممتقعة اللون وغفلاً ...، فإنَّ عقله هو العقل الكامل النموذجي انطباقاً على الطراز أو المثال، العقل الذي مجموع مطالبه هو الأعظم، العقل الذي نقوده، وتبرماته وتسخطاته، هي المهلكة في المدى الطويل»[26].

هنا كانت أولى بوادر ظهور البراغماتيَّة التي سدَّت الثغرة بين أصحاب المذهب العقلي والمذهب التجريبي، حيث وصفها الفيلسوف على أنَّها «**تظلُّ دينيَّة كالمذاهب العقليَّة، ولكنها في الوقت نفسه، مثل المذاهب التجريبيَّة، تستطيع أن تحتفظ بأخصب وأغنى صلة وثيقة بالواقع والحقائق**»[27]. لكنَّ هذا لا يعني أنَّ الدور الذي لعبته الفلسفة البراغماتيَّة هنا هو دور توفيقي بين مدار الصراع، إنَّ عملاً من هذا الشأن يُعدُّ أبشع أشكال الإساءة للفلسفة. ما هي هذه الفلسفة البراغماتيَّة؟ الجواب لن يحضر الآن بصفة مباشرة، ولكن يمكن أن نقول إنَّها حاجة دعتها ضرورة المجتمع لإشباعها، إنَّها حاجة تدعو إلى فتح كلّ النظم العقليَّة على تأويلات لعالم الحقائق والوقائع، لأنَّه في نهاية الأمر تبقى كلُّ نظرياتنا مجرَّد عقارات علاجيَّة وأماكن للهروب. لكنَّ الفلسفة البراغماتيَّة تخضع هذا الذي مناصه الهروب منه إلى الضرورة التي استدعته لتكون له وظيفة إصلاحيَّة، وظيفة تخدم فكر وحياة الإنسان، لأنَّ هذا هو المفترض أن يكون.

إذن، لا التصورات العقلانيَّة أو التجريبيَّة أو حتى الدينيَّة تشكل وحدها حلاً لمشاكل الإنسان والمجتمع، بل قد تكون جزءاً من هذا الحل كما هي جزء من المشكلة التي طرحتها وحدها. من هنا كانت الفلسفة لا تكتسي بطابع ديني ولا بطابع غيره، الفلسفة هي انفتاح وانكشاف على واقع آخر، ليس بالضرورة أن يكون حدسياً أو عقلياً محضاً، وإنَّما قد تأخذ شكلاً مغايراً يرقى بنا إلى سؤال كيف يمكن للمبادئ والآراء العامَّة أن تكون أيّ شيء سوى خلاصات مجرَّدة؟ أين مكمن الخلاف حقاً، هل هو في إرادة الإيمان أم إدارة وتحكيم أجناس الكون للعقل؟

إنَّ مشكلتنا تكمن في انهمامنا بالجزئي ونسياننا للكلّي في انسجامه وفي الوحدة التي يمثلها، إنَّ هذه الوحدة هي ما يمكن أن نسميه بالغرض من الشيء، أو بمعنى آخر الهدف الذي هو بمقتضاه هذا الشيء هو كذلك. من هنا كانت دعوة **وليام جيمس** إلى عدم إسقاط نظام إنساني على الكون، لأنَّ هذا النظام هو نتيجة «مزاج»، والمزاج لا يحقق لنا شرط الوضوح والإبانة المطلوبين. كما أنَّ هذا العالم تسكنه ذوات متعددة وبالتالي نفهم اختلاف أمزجة الأفراد، وفي إيثار مزاج ما على غيره فهذا نوع من القتل أو الاختصار لباقي الذوات، وفيه أيضاً نفي للنظام الإلهي الكوني، والإنسان نفسه هو في حاجة لقوة أكبر منه ليؤمن بها، لأنَّ فكرة الإيمان ستكون ذات أهمية لكونها لها دور مهم في الاستقرار النفسي للفرد. ومهما بلغت حكمة الإنسان

26. المصدر نفسه، الصفحة 50.

27. المصدر نفسه، الصفحة 51.

فإنَّ أنظمته ستبقى تفتقر إلى الكمال، فهي لا تخرج عن التقسيم الذي وضعه لها **وليام جيمس**، حيث ميَّز فيها بين خمسة نظم، هي كالتالي:

يقول: «**فثمَّة نظام فارهٌ جداً ... لبيب جداً، وثمَّة نظام آخر متحذلق جداً في نزعته إلى الادعاء، وثالث يصدر أشتاتاً من الآراء تحسبها جميعاً وهي شتَّى، ورابع في غاية السقم والكآبة، وخامس مصطنع جداً وزائف وهلمَّ جراً ...، مثل هذه الفلسفات نشاز، متنافرة الأنغام، ...، ليس من شأنها أن تتحدث نيابة عن الكون وباسمه**»[28].

أفلاطون ولوك وهيجل... وغيرهم، كلّ هؤلاء وأولئك استخفَّ **وليام جيمس** بطريقة معالجتهم للكون، بل إنَّه ردَّ سبب الارتباط الوثيق بهؤلاء إلى ما هو عاطفي، والسرُّ في هذه العمليَّة العاطفيَّة التي نتحرك إزاءها مرتبط أيضاً بالطريقة التي كتبت بها فلسفتهم، وهذا السر هو أيضاً من بين أسباب انتقاده للفلاسفة العقليين، حيث جعل فلسفتهم ترتبط بمشاريع وتصورات ضخمة، لكنَّ سبلهم في تحقيق ذلك والمبادئ التي يعتمدونها ضعيفة[29]، من هنا كان انتقاد التجريبيين لهم، أي أنَّ أفكارهم تبقى ممكنة التحقق في الذهن ولا ترقى إلى مستوى التطبيق، وهذا ما وقع فيه **سبنسر**، إلا أنَّ ما جعل أعماله تلقى نوعاً من الاهتمام الكبير والمبالغ فيه هو لارتباطها دائماً باستشهادات واقتباسات من الحقيقة والواقع، وهذا العمل هو ما يستميل العقل التجريبي، لكن بالنسبة **إلى وليام جيمس**: «**إنَّ الفلسفة البراجماتيَّة [...] تحتفظ بنفس العلاقة الوديَّة الحبيَّة مع الواقع والحقائق، وعلى خلاف سبنسر، فهي لا تبدأ ولا تنتهي بطرد النظم الدينيَّة الإيجابيَّة خارج الأبواب [...] هي بالضبط وتماماً طريقة التفكير التعادليَّة التوسطيَّة التي تطلبونها**»[30].

2 - منهجيَّة التفكير البراغماتي

البراغماتيَّة هي نظرة وسيطة بين أمرين مختلفين هما في الأصل واحد، بمعنى أنَّ الأشياء هي ما هي عليه نفسها، ولكنَّ وجه الاختلاف يكمن في وجهة النظر المختلفة، لذلك كانت البراغماتيَّة تكشف هذا الاختلاف وتوحده على وجه الصواب، إذن يبقى المشكل المطروح هو في تمييز مواقع الطرح الذي نحن فيه

28. المصدر نفسه، الصفحة 56 - 57.

29. Ortiz, Claudia Alvarez, said: « Van Gelder argued that "the best way ti identify philosophers, is not by the subject matter they are discussing, nor by where they are housed, but by their method". He claimed that philosophers can be identified by their reliance on certain characteristic methods: arguments, conceptual clarification and historical perspective ». Does philosophy improve critical thinking skills? Submitted in tottal fulfilment of the requirement of the degree of Master of Arts, Department of philosophy-Faculty of Arts, the University of Melbourne, February 2007 Page 7.

30. جيمس (وليام)، البراجماتيَّة، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة 2008، الصفحة 59- 60.

«**إنَّ أيَّ الحزبين على صواب يتوقف على ما تقصدونه عملياً بعبارة (الدوران حول السنجاب)**»[31]. من هنا كان الخطأ الذي نقع فيه هو لحظة الانحياز لتصور دون غيره ودون إدراكه على حقيقة سواء، لذا نضرب بمثل رجلين يطوفان بجذع نخلة، فإذا ما تسألنا أيّهما يتبع الآخر لن نستطيع تمييز الجواب الصحيح في هذه الحالة، أمَّا الجواب البراغماتي فيدعونا إلى ألا ننحاز إلى أحد دون الآخر مادام السبب لهذا الانحياز غير مدرك أو معروف، لأنَّه في هذه العملية سنقع في جدل لا مناسبة له، فالأحسن ألا نجيب عمَّا لا يحتاج إلى جواب، لأنَّ الجواب لا يغني بشيء، ولأنَّه أيضاً سيغوص بنا في مغالطات ودوَّامة جدال لا مخرج منها.

إذن، الطرح المفروض هو الدعوة للخروج من أزمة الفهم إلى فهم الأزمة، من هنا كان فضل البراغماتيَّة في حسم النزاعات الميتافيزيقيَّة بوضع الطريقة التي تحول بنا دون الوقوع في هذه التفرقة، ممَّا يؤدي بنا إلى التضارب. هذه النزاعات الميتافيزيقيَّة التي تأخذ شكل الأسئلة التي لا تنتهي إلى قرار مكين مثل: **هل العالم واحد أو متعدّد؟ أهو مسيَّر أم مخيَّر؟ مادّي أم روحانّي؟**[32]

مثل هذه الأسئلة -الأفكار- لا تحمل جواباً واحداً، والغوص فيها ليس بالأمر الذي يفضي إلى نتائج جيدة لكونها لا تنتهي إلى حدٍّ معيَّن. من ثمَّة كانت الطريقة البراغماتيَّة في مثل هذه الحالات هي محاولة تغيير كلّ فكرة استخلاصاً من نتائجها وآثارها العمليَّة. إذ ليس بالمهم مدى صحة أفكار من هذا القبيل بقدر ما يهم أثرها على الأفراد وما تنجم عنه من نتائج إيجابيَّة. هكذا تكون هذه الطريقة تهمُّ بكشف الفرق العملي بين صحة فكرة ما وخطئها انطلاقاً من أثرها الذي يجب أن يكون ممكن القياس بالنسبة إلى شيء آخر سابق عليه[33].

سعى **وليام جيمس** بعد هذه التوطئة إلى تحديد معنى البراغماتيَّة، حيث ردَّها أولاً إلى اشتقاقها اليوناني بمعنى «**العمل**» الذي يفيد في العقل اليوناني «**مزاولة**» و«**عملي**»، أي ما هو ممكن التحقق لغرض التطبيق[34]. وكان **تشارلز بيرس** أوَّل من استعمل هذا المفهوم وأدخله في الفلسفة، بعد أن أشار إلى أنَّ عقائدنا هي في الواقع قواعد للعمل والأداء، وهذا الأمر تمَّ بعدما بحث في كيفية إنشاء معنى فكرة ما. فجعل لذلك سبيل تحديد أيّ سلوك تصلح لإنتاجه.

---

31. المصدر نفسه، الصفحة 62.

32. المصدر نفسه، الصفحة 64.

33. All the questions that we have asked so far: «are all problems in which one is liable to find oneself disputing about questions of words as if they were questions of fact. In all of them the remedy is the same: to see what part of the difference is merely a difference in the use of words and then to see what difference (if any) remains as to fact or to valuation». ROBERT H. THOULESS, Straight and Croocked Thinking, London first published 1953, pages 39.

34. «A glance at the history of the idea will show you still better what pragmatism means. The term is derived from the same Greek word meaning action, from which our words «practice» and «practical» come », look William James, Essays in Pragmatism, Edited with an Introduction by ALBUREY CASTELL, hafner publishing company 1948, New York, page 142.

يقول تشارلز بيرس: «لكي ننشئ معنى فكرة، فكلُّ ما نحتاج إليه فقط هو تحديد أيّ سلوك تصلح لإنتاجه»[35] وعلى هذا يمكن أن نتحدث عن الحقيقة باعتبارها متعدّدة بتعدُّد فرق إمكان المزاولة العمليَّة، وبالنسبة إليه أيضاً لا يمكن أن نردّ الحقيقة إلى مدى وضوحها، وإلى ما يترتب عنها من آثار عملية يمكن تصورها، وإنَّما هي مجرَّد إدراكاتنا وتصوراتنا للمعاني الكليَّة لهذه الآثار والنتائج. وبالتالي يكون المبدأ البراغماتي نفسه الذي عمد إليه **تشارلز بيرس** هو ما استعاده **وليام جيمس** وقام بتطبيقه خصوصاً على الدين بعد حوالي 20 سنة.[36]

عرفت البراغماتيَّة إقبالاً كبيراً، كما شهدت الرفض من قبل بعض المفكرين، إلا أنَّ الزاوية الأكبر تجسَّدت في انفتاحها على علوم من عدّة تخصصات، فها نحن نجد في فلسفة العلم كمثال لتطبيق البراغماتيَّة في هذا المجال **أوستوالد كيموي لينزج** يراسل **وليام جيمس** قائلاً: **«كلّ الحقائق تؤثر في مزاولتنا، وهذا التأثير هو معناها بالنسبة إلينا [...] فإذا لم أجد شيئاً من الممكن أن يصبح مختلفاً، فالبديل عندئذ لا معنى له من حيث النتائج»**[37]. هكذا يكون المعنى هو ما يحدثه من فرق على مستوى عملي. أمَّا إذا كان المعنى في غير ذلك إذاً لا طائل منه ومن الاختلاف ليكون هذا الاختلاف اعترافاً بوجوده. فإذا قادتنا هذه المسألة إلى سؤال: **أيّ حقيقة تجريبيَّة معينة بالذات كانت تصبح مختلفة من جرَّاء صحة هذا الرأي أم ذاك؟**[38] كان الواقع معياراً للصدق أو الكذب في اللحظة التي يترتب عن الاختلاف أثر. ومنه نستدل بالشيء كواقعة على الأثر كحادثة، ولا يمكن أن يكون العكس، لأنَّه سيفيض بشكل من الدعوة إلى الإيمان. ولعل تمييزنا نحن للأثر بحادثة أقرب لتوضيح معقوليَّة الرغبة في قياسه واستنتاج حكم صحته. بهذا المعنى جعلت الحقيقة ما هو نافع، لأنَّ النافع ضرورة ينتج عنه تغير في السلوك، وهذا التغير هو ما يقاس بالنسبة إلى البراغماتي. وهذا ما يجعل قيمة الفلسفة بالنسبة إلى البراغماتي **وليام جيمس** ما تتركه من نتائج محسوسة أو أثر ملموس، الأمر الذي يدفعنا لنسأل أنفسا لمَ الجدل والخلاف فيما لا يحدث فرقاً ولا نتائج له؟

يقول ستيفان غلتك Stéphan Galetic بهذا الخصوص: **«وبالتالي فالمدخل لجيمس يتمثل في فكرة الحقيقة التي هي صيرورة الصلاحيَّة والملائمة القائمة في السلوك التي تتطلع إليها الفكرة أو بالأحرى**

35. جيمس (وليام)، البراجماتيَّة، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة 2008، الصفحة 65.

36. « […] he emphasized pierce's role in birth of pragmatism in lecture 2 of pragmatism: A NEW NAME FOR SOME OLD WAYS OF THINKING. Remarking that the word "pragmatism" derives from the greek word for action from which our words "practice" and "practical" come, he noted that it was "first introduced into philosophy by Mr. Charles Sanders Pierce in 1878" », Hookway, Christopher, logical principles and philosophical attitudes: peirce's response to james's pragmatism, the cambridge companion to william james, edited by ruth anna putnam, wellesley college, cambridge university press 1997, page 145.

37. جيمس (وليام)، البراجماتيَّة، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة 2008، الصفحة 67.

38. المصدر نفسه، الصفحة 67.

تتجلى في النتائج التي تتمخض عن تجربتنا، وفي النهاية، ترجمة جيمس لهذه الفكرة، أي فكرة النتائج العمليَّة هي في مصطلح من قبيل النتائج الخاصة»[39].

من هنا يجعل وليام جيمس وظيفة الفلسفة في إيجاد الفرق في تفسير العالم وأثره على الذات بشكل خاص وعلى العالم بشكل عام. ولهذا السبب اعترف بجدّة **سقراط وأرسطو ولوك وهيوم** لمَّا جعلوا من البراغماتيَّة سبيلاً أو وسيطاً لخدمة الحقيقة، لكن بدرجة مختلفة وأقلّ ممَّا هي عليه الآن مع **وليام جيمس** «**بيد أنَّ هؤلاء الروّاد السابقين للبراغماتيَّة استخدموها بعضاً لا كلاً [...] إذ لم يقدر للبراغماتيَّة أن تعمّم نفسها إلا في زماننا المعاصر**»[40]. إنَّها تمثل الاتجاه التجريبي في الفلسفة، وبشكل أكثر حفاوة وشدَّة وأكثر ليونة ومعاندة في الآن نفسه. كما أنَّها تبتعد عن الفكر النظري المجرَّد وتقبل بالاكتفاء ولا تسعى إلى المغالطات والجدال، وهي لا تعتمد المبادئ الثابتة والبحث في الأصوليات. هكذا هو الإنسان البراغماتي. إذ يمكنه الاستناد إلى الأشياء والمحسوسات وإلى الحقائق والوقائع ويستند إلى العمل والإرادة والمزاولة والقوة. وهكذا هي البراغماتيَّة؛ فضاء رحب لكلّ الإمكانات والممكنات المتاحة، فلا تنحصر في المذهب التجريبي ولا في المذهب العقلي. لكنَّها بالتأكيد يمكن أن تكون كليهما بصبغتها الخاصة، وهذه الطريقة ستضفي تغييراً في ما أسميناه سابقاً بمزاج الفلسفة «**وهي في الوقت نفسه لا تظاهر ولا تناصر أو تمثل أو تنوب عن أيَّة نتائج خاصَّة: إنَّها مجرَّد طريقة فحسب، مجرَّد منهاج فقط**»[41]. وعلى هذا المنوال كانت بداية اتحاد العلم والميتافيزيقا.

ارتبطت الميتافيزيقا سابقاً بامتلاك الكلمات المناسبة التي تخولنا إمكانية التحكّم في أيّ شيء هو جزء من هذا الكون، حتى وإن كانت تنتمي إلى عالم الغيبيات، كلمات من قبيل «الإله» و«العقل» و«الطاقة» ...، لها قدرة على تدبير وحلّ مشكلات الكون والبشريَّة، ومن تحصلت له هذه القدرة «**عندئذ تبلغ نهاية مطاف استطلاعك ومطلبك الميتافيزيقي**»[42]. وعلى عكس الطريقة البراغماتيَّة فإنَّ امتلاك الكلمات يعني بالضرورة الحاجة إلى استخراج **قيمتها النقديَّة الفوريَّة**، وهذا يعني أن تكشف عن كيفية عملها في مجال خبرتك، وبهذه الطريقة لن تعود كحلٍّ ميتافيزيقي، وإنَّما كمنهاج للعمل وكطريقة لتغيير الحقائق أو الوقائع الراهنة، فتصبح هكذا «**النظريات مجرَّد وسائل وأدوات، وليست حلولاً ميتافيزيقيَّة**»[43]. وهذه العمليَّة تتميز بكونها غير ساكنة على معطيات قبليَّة، بل إنَّها تجعلها حركيَّة تستجيب لمتطلبات اليوم وحاجاته، بل إنَّها تذهب إذا

39.Galetic, Stéphan, Théorie et pratique chez William James, Université de Liège, Bulletin d'analyse phénoménologique IV 3, 2008 (Actes 1), page 54.

40. المصدر نفسه، الصفحة 70.

41. المصدر نفسه، الصفحة 72.

42. المصدر نفسه، الصفحة 73.

43. المصدر نفسه، الصفحة 74.

ما اقتضى الحال إعادة صياغة الطبيعة كأنظمة وقوانين بتأويلها تأويلاً جديداً، وبالتالي البراغماتيَّة هي كسر لجمود الأفكار والنظريات سواء القديمة أو الحديثة منها. إنَّها منهج يجعل هذه الأفكار تتماشى مع الحياة.

ومن ناحية ثانية إنَّها تبدو معارضة للمذهب العقلي المستسلم بكلّ إخلاص للقوة الغائيَّة وللحقيقة النهائيَة، وهي لا ترمي بهذا التعارض إلى أنَّها تُعَيّن بعرض ما أو أنَّها تناصر تصوراً معيناً. وهنا نفهم أنَّ التعارض الذي تقيمه البراغماتيَّة مع المذهب العقلي هو لكون هذا المذهب الأخير لا يروم تأسيس منهج لكونه إطلاقياً يشرح بالشيء ككلمة كلّ شيء.

باختصار؛ يقول **وليام جيمس** إنَّ التعارض مبني على فكرة «**المنهج**»، ولأنَّ المذهب العقلي لا يحقق لنا هذا الانتقال ممَّا هو نظري إلى ما هو عملي فهو لا يخدم وظيفة البراغماتي، والبراغماتيَّة لا تنهمُّ بالعقائد اليقينيَّة أو المبادئ ...، وإنَّما ما يهمها فقط هو طريقتها ومنهجها وطريقها المفضي إلى كلّ المعارف والمنفتح على شتى آفاق هذه المعارف. هذا التنوع والتعدُّد هو دائماً يعود إلى السبيل نفسه: إنَّها **البراغماتيَّة**.

يقول مؤلف البراغماتيَّة: «**إنَّه اتجاه تحويل النظر بعيداً عن الأشياء الأوليَّة، المبادئ، النواميس، الفئات، الحتميات المسلَّم بها، وتوجيه النظر نحو الأشياء الأخيرة، الثمرات، النتائج، الآثار، الوقائع، الحقائق**»[44].

بعد تقديم هذا التصوُّر حول البراغماتيَّة، سيعمد **وليام جيمس** إلى توضيح هذه الطريقة وتطبيقها على بعض النماذج لمشكلات مألوفة لعصره، وهو في هذا الأمر سيأخذ البراغماتيَّة ليس بالطريقة التي عرفناها آنفاً مع اليونانيين، وإنَّما كما ترتبط لديه في الذهن بالحقيقة، ومع تطور العلوم الذي شهدته تلك الحقبة بات من اليقين أنَّ كلَّ قوانيننا هي مجرَّد تقديرات تقريبيَّة، وفي ظلّ هذا التطور العلمي بات من الملحوظ على أنَّ هناك تعدُّد للنظريات تَدَعي مطابقتها للواقع[45]، ولهذا المشكل طرحت البراغماتيَّة قضية اعتبار المفيد من هذه النظريات ما يلخص لنا الحقائق القديمة ليفتحنا على آفاق وحقائق جديدة. ولعل من بين أبرز من أعلى من مكانة «**الحق**» لهذه الدرجة بحيث مثلاه بـ«العلم» هما **شيلر وجون ديوي** اللذان جعلا من «**الحق**» كلّ ما هو قابع في أفكارنا وعقائدنا وهو يعني ما يعنيه العلم نفسه. وماذا يمكن أن يعني هذا إلا أنَّ أيَّة فكرة تنقلنا من تجربة إلى تجربة حيث يكون هذا الانتقال منطقياً ومقنعاً كفاية وينتج عنها –أي الفكرة- عمل وجهد، فهذه الفكرة إذن حقيقيَّة وصحيحة. ولهذا عبَّر عن مذهب هذا الطرح بوجهة النظر القائلة إنَّ «**الحق في**

44. المصدر نفسه، الصفحة 76.

45. « In pragmatism two ideas are stressed: (1) truth is agreement with a reality or realities and (2) “truth happens to an idea. It becomes true, is made by events”. Putnam, Hilary, James’s theory of truth, the cambridge companion to william james, edited by ruth anna putnam, wellesley college, cambridge university press 1997, page 172.

أفكارنا يعني قدرتها على أن تؤدي وظيفتها»[46] مع العلم أنَّ **شيلر** و**جون ديوي** جعلا من قيمة البراغماتيَّة بسيطة بـ«**أخذ عملية بسيطة يمكن مشاهدتها عملياً في الواقع من الأمر – مثل ظاهرة التعرية بواسطة العوامل الجويَّة أو التحوُّل عن النمط الأبوي أو تغيير اللهجة بإدخال كلمات جديدة ونطق جديد – ثمَّ بعد ذلك تعميمها وجعلها تنطبق على كلّ الأزمنة واستخلاص نتائج عظيمة بإجمال آثارها خلال العصور**»[47].

وبالتالي وصف **وليام جيمس** أنَّ عملهما اقتصر في هذه الحالة على تعديل الأفكار ملاحظاً أنَّها غير متزنة مع ما شاهداه من ظواهر، هذا التعديل لم يأتِ اعتباطاً، وإنَّما انطلاقاً من انتقاداتهما التي يعمّمانها على الأفكار القديمة، ومن خلال توالي الانتقادات ستظهر فكرة جديدة نتيجة لهذه الانتقادات، فكرة في الأصل تقوم بدور الوسيط بين المعارف القديمة والجديدة. فتتخذ هذه الفكرة القديمة شكلاً جديداً على أساس أنَّها صحيحة محتفظة برصيدها من الحقائق القديمة بقدر صغير من التعديل لتقنعنا وتوهمنا بجديتها للإقرار بها، وهذا أمر رفضه **وليام جيمس** لأنَّه يعتقد أنَّ **شيلر** و**جون ديوي**[48] انطلقا من معرفة ومعطيات قديمة وقاما بانتقادها فأسميا نتائج انتقادهما بالمعرفة الجديدة، والأجدر أن يكون الانتقاد سبيلاً للتعبير والتأسيس والتوضيح لفكرة جديدة قادمة بعده، إنَّ البراغماتيَّة هي منهج وليست نظريَّة وقيمة هذا المنهج فيما يحققه من أثر وتغيير، سواء أكان له عمق قديم أم لا، فهي تظلُّ اسماً قديماً لطريقة تفكير جديد. أمَّا فيما يخص فكرة القطع نهائياً مع بعض المدركات القديمة فهذا محال أن يكون، لأنَّ «**الزمان والفراغ، السبب والنتيجة والطبيعة والتاريخ، وسيرة وتاريخ حياة الشخص نفسه تظلُّ بلا مساس**»[49]. ومهما نتج عن توظيف هذا المنهج، إلا أنَّه يظلُّ مستمراً، وهذا الاستمرار هو ما يرجّح مدى صحة الفكرة.

وبعد، لا يعني دائماً أنَّ البراغماتيَّة تستند إلى الحقائق القديمة وأدوارها، ولعل عدم إدراج هذه الحقائق في الحسبان هو ما فتح باب النقد عليها، لذلك جعل **وليام جيمس** تأثيرها في مرتبة القوة المتحكّمة، ولكن لم يجعل الولاء لها الصفة التي يتميز بها الإنسان البراغماتي. إنَّ هذا الولاء هو وفاء للنظريَّة في صورتها الأصل، ومن ثمَّة كانت دعوة **وليام جيمس** في هذه الحالة إلى إعادة تنظيم مفاهيمنا السابقة، إلا أنَّ هناك مشكلة تبقى مطروحة تتجلى في هذه التعدديَّة للمنظور. فهي تخلق لنا بدل الحقيقة حقائق هي في الأصل للبنة حقيقة واحدة، أو أنَّها ذات مصدر قديم تفرَّعت عنه، وبهذا الشكل تكون الحقيقة هي مجرَّد تغيير في العقائد

---

46. جيمس (وليام)، البراجماتية، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة 2008، الصفحة 80.

47. المصدر نفسه، الصفحة 80 - 81.

48. جون ديوي (John Dewey) 1952 - 1859هو مربٍّ وفيلسوف وعالم نفس أمريكي، والفيلسوف الحق القائد للفلسفة في أمريكا، أستاذ الفلسفة بشيكاغو سنة 1899، كتب في التربية وعلم الجمال وعلم النفس والدين والسياسة والأخلاق، من أهمّ كتبه «المدرسة والمجتمع» 1899، «كيف نفكر» 1910، «الديموقراطيَّة والتربية» 1916، «بناء فلسفة جديدة» 1920، «البحث عن اليقين» 1929، «الفن كتجربة» 1933. انظر تاريخ الفلسفة الغربيَّة، برتراند راسل، ترجمة فتحي شنيطي، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، سنة 1977، الصفحة 477. وانظر بعض مشكلات الفلسفة، وليام جيمس، ترجمة فتحي الشنيطي، مراجعة زكي نجيب محمود، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصريَّة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، بدون سنة، الصفحة 15.

49. جيمس (وليام)، البراجماتيَّة، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة 2008، الصفحة 82.

القديمة، إنَّها معرفة تراكميَّة أخذناها كحقيقة. وبالنسبة إلى **وليام جيمس** مهما تعدَّدت الأنواع وأجناسها، إلا أنَّ الحقيقة هي ما نقوله عنها، إنَّها ما يكتفي بالصيغة الإضافيَّة الخالصة، لكن مع هذا يبدو أنَّنا لم ننتبه إلى تعريف دواعي إعادة التنظيم.

إنَّها حاجات اليوم وما يحمله ويشهده من تطورات، لأنَّ هذه العلوم في ظلّ التطور الذي بزغ عنها تدفعنا للاعتقاد بطريقة ما نظراً للثقة التي نضعها فيها، فكلُّ رأي جديد نعتقد به (لصحته) هذا يكون بأخذ عين الاعتبار لما يحققه من رضى للأفراد في استيعابهم الجديد لخبراتهم. هذا الاستيعاب «**لا بدَّ أن يرتكز على حقيقة قديمة ويمسك بحقيقة جديدة في آن واحد**»[50] وهذا النمو أو النقلة غالباً ما ترجع لأسباب ذاتيَّة، وهذا الأمر شبيه بفكر **أكسينوفان** النقدي حيث قال بضرورة نقد الفكر القديم، وفي الوقت نفسه يجب ألا نأخذ بهذا النقد كمعرفة بديلة، فالنقد ليس معرفة ولا فلسفة، إنَّما هو وسيلة وأداة.

من هنا كانت هذه الأفكار الجديدة تقاس من جهة قوتها بوظيفتين: بمدى إمكانية أن تكون صحيحة وحقيقيَّة مع ما انبنت عليه ممَّا هو قديم. من هنا مضى «**كلٌّ من ديوي وشيلر إلى تعميم هذه الملاحظة وتطبيقها على أكثر أجزاء الحقيقة قدماً ...، وسمّيت أيضاً صحيحة أو حقيقيَّة لأسباب ودواع إنسانيَّة، وهي أيضاً توسطت بين حقائق أسبق منها وملاحظات اعتبرت في تلك الأيام جديدة**»[51]. وفي مقابل هذه الحقيقة هناك الحقيقة الموضوعيَّة، حيث إنَّها لا تؤدي في رسوخها دوراً في منح الرضا والاكتفاء في تزويج السابق باللاحق من الخبرة، مع **وليام جيمس** لا نجد لهذا النوع من الحقيقة وجوداً، ومن ثمَّة كانت معايير الصحة والحقيقة التي نكسو بها الأشياء تتلخص بمدى تأديتها لهذه الوظيفة الزواجيَّة، بينما الحقيقة المستقلة المطلقة لا تساعد في شيء لما تتصف به من الجمود، لكن علينا ألا نجعل هذا يذهب بنا لنفهم أنَّ كلَّ ما هو قديم جامد بالضرورة، بل على العكس، إنَّ هذه الأفكار والمعارف المنطقيَّة وما تشهده من تحول في زماننا هو أكبر دليل على مرونتها.

خلاصة الأمر يقول الفيلسوف: «**هذا، إذن، هو مجال البراغماتيَّة ومداها: أولاً طريقة، وثانياً نظريَّة توليديَّة تكوينيَّة تناسليَّة لما نعنيه بالحقيقة**»[52]. وعليه توضح البراغماتيَّة بالتفصيل لماذا علينا أن نذعن لشيء ما؟ إنَّها تقتفي الأثر الذي من أجله يتبع الناس الحقيقة، والذي بسببه يحتم عليهم اتباعها، هكذا تتشبث بالوقائع وتكشف الغامض بالواضح الجلي، وتؤلف بين القديم والجديد في انسجام وتناغم، إنَّها أيضاً

50. المصدر نفسه، الصفحة 86.
51. المصدر نفسه، الصفحة 86 - 87.
52. المصدر نفسه، الصفحة 88.

تحول الفكرة بين العقل والواقع، وهي أيضاً «**الموقف السعيد لطرق التفكير التجريبيَّة مع متطلبات الناس الدينيَّة**»[53].

انطلاقاً من هنا بعد جملة الانتقادات والملاحظات التي أدلى بها الفيلسوف، سنجد أنَّه عاد ليسلط الضوء على جانب خفي يلعب دوراً مهماً في حياة الأفراد وفي تفكيرهم، إنَّه **اللاهوت**، مادامت الأفكار اللاهوتيَّة أثبتت قيمتها في الحياة الملموسة، ومادام لهذه القيمة أثر يمكن قياسه، فهي إذن صحيحة مادامت نافعة.

يقول **وليام جيمس** بهذا الصدد: «**إنَّ ما قلته منذ لحظة عن المطلق ... خلعت عليه تسمية الجليل والبهي والسنّي، وقلت إنَّه يمنح الطمأنينة والسكينة الدينيَّة لفريق من العقول [...] فمن المؤكد أنَّه ليس بعقيم ولا بائر، إذ له هذا القدر من القيمة، وهو أنَّه يؤدي وظيفة محسوسة ملموسة. وكبراغماتي مخلص، فأنا نفسي ينبغي أن أسمي المطلق صحيحاً إلى هذا الحد وبهذا القدر**»[54]. ولكي لا نفهم هذا الرجوع خطأ يجب أن ننتبه أولاً لتحديد معنى الصحَّة في هذا الباب، بتطبيق الطريقة البراغماتيَّة يتساءل: **ماذا يعني المؤمنون بالمطلق بقولهم إنَّ اعتقادهم يمنحهم الراحة والسكينة؟**[55]

إنَّه الإخلاص والثقة التامة بأنَّ المطلق يدير العالم، وبأنَّنا لا نحتاج للقلق بخصوصه والعناء بالتفكير في طرق تدبيره. إنَّ «المطلق» بهذا المعنى كالتخلي عن مسؤوليَّة الإنسان في هذا الكون، لكنَّ المشكل هو أنَّ خبراتنا لا تنسجم مع هذا الطرح. فالتسليم بالمطلق يقابله نفي إرادة الفرد، والأخطر في ذلك هو اللحظة التي نقيس فيها أحداث الكون بتجاربنا. أي أنَّنا نؤول ونبرّر خبراتنا بما نرى في الطبيعة ومتغيراتها وتدابير المطلق.

بصفة عامة إنَّنا لا نعترف بتجاربنا، وإذا فعلنا نقول إنَّها تبقى حصيلة لإرادة المطلق، من هذه الناحية نفهم نقد البراغماتيَّة، ومن ناحية أخرى نجد دعوى (الإيمان في حدوده) وفي ظلّ العقلانيَّة بشروطها، أي في اللحظة التي لا يكون الدين والإيمان عائقاً أمام التفكير والعمل، عند هذا الحد **وليام جيمس** لا يكون ضدَّ الإيمان بل معه مادام التجريب والتجريد منسجمين، فجيمس يؤكد على أنَّ التجريد ليس كلياً ولا فردياً، إنَّه دائماً خاص بالمعنى الذي يكون مجرداً أو تجريداً لعنصر من العناصر. لكن يصير كلياً أو فردياً حسب

53. المصدر نفسه، الصفحة 93.

54. جيمس (وليام)، البراجماتية، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة 2008، الصفحة 97.

55. المصدر نفسه، الصفحة 97.

تطبيقاته، بمعنى آخر؛ إنَّه يجعل القيم والأفكار نتيجة للتجربة[56]. من هذه النقطة ندرك القصد من الصحة «**أقول إنَّ الفكرة تكون صحيحة بمعنى صدقها العقلي، مادام الاعتقاد بها يعود بفائدة على حياتنا**»[57].

إذاً، الصحيح ما دلَّ على ثبوت صلاحه وخيره من قبيل الاعتقاد والإحساس، لأنَّ الخير الذي يراد للحياة لا يكون إلا في الأفكار الصحيحة، أمَّا إذا كانت الكاذبة منها ما يحقق المنفعة فإنَّ قدسيَّة الحقيقة ستكون أمراً باطلاً، وبالتالي فكما كان في السابق لا يستسيغ **وليام جيمس** فكرة المطلق في جانب محدد، إلا أنَّه يضرب لنا مَثَلَ هذه الأفكار بـ«**أطعمة معيَّنة ليست فقط موافقة سائغة لمذاقنا ولكن صالحة لأسناننا ومعدتنا وأنسجتنا**»[58]. كذلك الأفكار أيضاً، فربما تكون لا تتماشى مع نمط تفكيرنا ومعتقداتنا، لكن هذا يجب ألا يمنع من النظر فيها والأخذ بها في ما ينفع مادامت تقدّم لنا حلولاً عمليَّة.

«**ما الذي قد يكون أمراً أفضل لنا لتصديقه؟ هذا قد أضحى يبدو كتعريف للحقيقة، أصبح يقارب جداً قولنا ما الذي يجب أن نؤمن به؟ وفي هذا التعريف لا أحد منا سيجد أيَّ شذوذ فيه. رغم أنَّنا لا نصدق بما هو أفضل لنا كاعتقاد. وهل يمكننا الاحتفاظ بفكرة ما هو أفضل لنا، وما هي الحقيقة بالنسبة لنا، على حد سواء باستمرار؟**[59]».

كجواب مختصر عن الأسئلة المطروحة أعلاه، يعرّف **وليام جيمس** الحقيقة: **إنَّ الحقيقة هي ما هو الأفضل لاعتقادنا والتمثيل الجيّد للواقع**[60]، مع هذا علينا ألا نفهم أنَّ كلَّ ضروب العالم هي خير، لأنَّ هذا الفهم ببساطة تعبير عن مدى سذاجتنا والوهم الذي نحن منغمسون فيه الذي يبدو كأنَّه حقيقة. فإن عَجِزْنا عن التشكيك في هذه الأوهام فلننظر إذن إلى ما يحدث فينا عندما ننتقل من التفكير في المجرَّد إلى المحسوس.

---

56. Galetic, Stéphan, Théorie et pratique chez William James, Université de Liège, Bulletin d'analyse phénoménologique IV 3, 2008 (Actes 1), page 63.

57. المصدر نفسه، الصفحة 99.

58. المصدر نفسه، الصفحة 101.

59. James, William, «What would be better for us to believe'! This sounds very like a definition of truth. It comes very near to saying 'what we ought to believe': and in that definition none of you would find any oddity. Ought we ever not to believe what it is better for us to believe? And can we then keep the notion of what is better for us, and what is true for us, permanently apart? », Pragmatism, A New Name for Some Old Ways of Thinking, edition 10, page 35.

60. « These ideas are those of Sellars and of Quine, and in the chapter i interpret Sellars's attack on "givenness" and Quine's attack on "necessity" as the crucial steps in undermining the possibility of a "theory of knowledge." The holism and pragmatism common to both philosophers, and which they share with the later wittgenstien, are the lines of thought within analytic philosophy which i wish to extend. I argue that when extended in a certain way they let us see truth as, in james's phrase, "what it is better for us to believe." Rather than as "the accurate representation of reality." Or, to put the point less provocatively, they show us that the notion of "accurate representation." Is simply an automatic and empty compliment which we pay to those beliefs which are successful in helping us do what we want to do ». Rorty, Richard, philosophy and the mirror of nature, princton University press princeton, new jersey, 1979, page10.

هكذا نكون قد توصلنا إلى مراد الفيلسوف من الأسئلة إلى أن ننتبه للتعارض الذي من الممكن أن نسقط فيه عند بداية اعتقادنا لفكرة ما بأنَّها صحيحة، إنَّه تعارض قائم بين الاعتقاد فيما نعتقد فيه وبين ميزة جوهريَّة أخرى – كاعتقاد معيَّن ندين به- فمن ثمَّة كان من الواجب على هذا التعارض ألا يكون سبباً في نفي غيره من هذه الجواهر، لأنَّها تعتبر جميعاً لها المزايا نفسها التي تهدف لحفظ الذات والرغبة في إبادة ما يهددها. لذلك كان الأمر في هذه القضيَّة محاولة للتوفيق بين كلّ هذه الجواهر التي كما رأينا تتسم بالخاصيَّة نفسها.

لكن في حالة إذا تنازلنا عن ميزة حقيقة معينة لصالح أخرى، فهذا لن يفضي بنا إلى حل ينقص أو يزيح «**هموم الحياة ومشكلاتها**»[61]، بل سيزيد الطين بلَّة، لأنَّ في عملية التنازل عن شيء ما أكون قد قبلت في مقابله شيئاً آخر غيره، وهذا القبول غالباً ما لا نفهم سببه، الأمر الذي يضعنا في نهاية المطاف أمام متناقضات فكريَّة، والمفترض أننا قلنا إنَّ البراغماتيَّة تلين وتفكك وتوفق بين نظرياتنا. لذا ليس من الغريب إن كنا نجدها توسع من مجال البحث عن الله، فهي هنا تجعل من الحقيقة المحتملة على محك «**ما يؤدي وظيفته على أحسن وجه في سبيل قيادتنا والأخذ بيدنا، وما يلائم كلَّ جزء من الحياة على أحسن وجه، ويجمع ويمزج جماع مطالب الحياة، ولا يغفل منها شيئاً**»[62] وبما أنَّ الفكرة «الله» قد نجحت إلى هذا الحد في التوافق مع ما هو واقعي وملموس، فلماذا نحكم بأنَّها غير حقيقية، أليست تجسّد ذاك الانسجام؟

3 - مفاهيم على محكّ تاريخ الفلسفة أو النقد الفلسفي

إنَّ الجوهر مفهوم مركزي سيكون له حضور قوي من هذه اللحظة، إنَّه والبداهة كما سنراها في المحور اللاحق سيساعداننا على تفسير كيف نفكّر لتحصيل المجهول الذي نتصوره؟ من هنا كان الإشكال المستعصي على الإدراك قابعاً فقط في تحديد المفهوم، ومع عمق البحث سيكون من الملحّ جداً تحديد وتمييز الأشياء في الذهن. لذلك كان المفهوم في حاجة إلى التعريف، والذي يعرفه للذهن هو الحد والرسم كما في صناعة المنطق.

إنَّ العالم فضاء متميز لتعدده، بدليل أنَّ لكل مادة صفة تميزها عن غيرها دون شك، هذه الصفة تعطيها قيمة تحسب بها انطلاقاً من اختبارنا نحن - إنَّنا نحن من يغني العالم بالدلالات، ونحن من يفقره بالاختزال- والجوهر في هذا الأمر هو ما يعطينا إحساساً بها لإدراك وجودها. إنَّه ما يشكّل بالنسبة إلينا «**حقيقة التماسك أو الارتباط أو الاتحاد في حدّ ذاتها** -هذه المفاهيم- **هي كلّ ما تعني فكرة الجوهر من حيث المغزى الذي تدلُّ عليه**»[63]، من هنا كانت المفاهيم بالنسبة **إلى وليام جيمس** نتيجة للتجارب التي أوقفته، بمعنى أنَّ كلّ توظيف

61. جيمس (وليام)، البراجماتية، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة 2008، الصفحة 104

62. المصدر نفسه، الصفحة 106.

63. المصدر نفسه، الصفحة 111.

لمفهوم يكون نتيجة لخبرة أوليَّة دعت هذا التوظيف فتخدم بهذا الغرض المطلوبة له، إنَّه كقول **المظفر محمد رضا: «ليس الغني هو الذي يعرف معنى النقود وأجزائها وكيف تتألف، بل الغني من يعرف طريقة كسبها فيكسبها، وليس المريض يشفى إذا عرف فقط معنى الدواء وأجزاءه، بل لا بدَّ أن يعرف كيف يحصله ليتناوله»**[64]. كذلك بالنسبة إلى المفهوم كان من الواجب معرفة كيفيَّة توليده وحسن استخدامه، ومن هنا كان من الضرورة معرفة متى تدعو الحاجة إلى تأصيل مفهوم جديد وفي أيّ موضع يليق.

تغيير دلالة معنى ما هو تغيير يطال نظرتنا إلى هذا العالم وينذر ببداية طريقة تفكير جديدة، من هنا كانت المفاهيم من قبيل «الله» أو «المادة» ...، تقارن قيمتها بقوة حضورها في حياة الفرد وتأثيرها عليه. فإذا كان غيابها كوجودها لا يضيف تغييراً ولا تعديلاً على السلوك فسواء اعتقدنا بها أم لا فهذا لا ينقص منها شيئاً ولا يضيف شيئاً أيضاً. من هنا كان نقد المذهب المادي والإلهي الموجَّه من قِبل البراغماتيَّة، لأنَّها تجد في صراع هذين المذهبين حول على من تقع مسؤوليَّة هذا العالم، أهي المادة أم الإله؟ تجده صراعاً سخيفاً وتافهاً، لهذا انطلق في جوابه عن السؤال المطروح إلى أن يرى أنَّه «**عندما تنتهي مسرحية ما ويسدل الستار على آخر فصل فيها، فإنَّك في الواقع لن تجعلها أحسن بادعاء أنَّ مؤلفها عبقري شهير مُجيد، كما أنَّك لن تجعلها أسوأ إذا خلعت عليه صفة المبتذل العادي**»[65].

إنَّنا سنكون مخطئين كثيراً ما لم نجعل «الإله» هو محور البحث، رغم كونه أمراً يصعب علينا، لأنَّه لا تتوفر لنا القدرة على إدراكه حسيَّاً، بل حتى العقل يبقى قاصراً أمام محاولة معرفته تمام المعرفة، لذا كان السبيل الأوحد لمعالجة هذا الفضول المستعصي هو أن ننطلق من ذواتنا وندرس باقي خلقه بما تمدُّنا به تجاربنا الشخصيَّة. إذ لا ضير في الاعتقاد به مادام هذا الاعتقاد لا يختزل في هيئة واحدة تخصُّ مذهباً ما أو في شكل من أشكال الدعوة إليه. بل يجب أن يرتبط بحاجة الفرد النابعة من إرادته هو بحسب فهمه له، لأنَّ هذا ما يمكن أن يؤدي بنا إلى لحظة السكون النفسي والعاطفي التي تحقق لنا الرضا وراحة البال. هذه الحالة بطبيعة الحال هي عمود التوازن بين ما هو نفسي وعقلي وجسدي.

من هنا كان الانتقال إلى ضرورة استيعاب أنَّ كثيراً من الأمور (ظواهر أو قضايا) بالرغم من التناقض الذي يسكنها إلا أنَّها وجدت لتكمل بعضها بعضاً، ولعل ما نبرّر به كلامنا هذا قول الفيلسوف البراغماتي: «**فعيوننا مثلاً، تنشأ أصلاً في ظلام (ناشب في الرحم)، والضوء ينشأ أصلاً من الشمس، ولكن انظروا إلى أيّ حد يلائم كلٌّ منهما الآخر؟ من الجلي أنَّ كلاً منهما قد جعل وقصد ودبّر من أجل الآخر. فالإبصار هو الغاية المقصودة والمرسومة، والضوء والعينان هي الوسائل المستقلة المنفصلة التي دبّرت لبلوغه**»[66].

64. المظفر، محمد رضا، المنطق، دار التعارف للمطبوعات الطبعة الثالثة، سنة 2006، الصفحة 116.

65. جيمس (وليام)، البراجماتيَّة، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة 2008، الصفحة 125.

66. المصدر نفسه، الصفحة 139.

يا لهذا النظام الهائل الذي يدفعنا في لحظة لأن نبحث عن نظام للحقيقة لنتحدث عنها كحقائق ثابتة! إنَّه نظام ثابت من شروط وظروف ممَّا يفضي إلى معرفة الهدف منها، إنَّها ليس دفع الناس إلى الإيمان بها أو حتى التصديق، لأنَّها بهذا ستكون مجرَّد رسم من ضروب مزاج الذهن الإنساني. إنَّما الهدف بحسب رأينا المتواضع هو الوعي بالإدراك الذي دفع بنا إلى خلق هذه الحقيقة واعتبارها كاملة.

إنَّه ما يغوص بنا نحو الماهيَّة وإدراكها البدهي، وهذه الملكة من العقل لا نجدها إلا عند من أسماهم **وليام جيمس** بأصحاب العقل الكوني، حيث ينظرون إلى العالم في وحدة وجوده وفي تعدُّد أجزائه التي تؤدي إلى وحدة منظوره. فإذا كان **النظام الكوني برمَّته قد دبّر إنتاجه**[67] فكذلك الحقيقة يجب أن تكون نظاماً كونياً قد دبّر إنتاجها، ولعل صدى هذه الفكرة يردُّنا إلى موضوع الكينونة عند **مارتن هيدغر**، حيث اعتبرت شيئاً منادى عليها تنفصل عن العلم، لأنَّ العلم لا يفكر.

إذا كان العالم نظاماً كونياً قد دبّر إنتاجه فلا بدَّ أنَّه هو عالم الحقائق والوقائع الذي نعيش فيه، إنَّه عالم مقرّر لنا إدراكه كمجال متميز لنا. أو بعبارة أخرى كأفضل عالم - ممكن- بالنسبة إلينا. وبالرغم من هذه الأهميَّة الكبيرة لا يفترض بنا أن نظن أنَّ عالم الأفكار المجرَّدة التي تتوغل فينا على هامش من الاعتبار. بل إنَّ من الغريب إدراك المكانة التي تحتلها بعد، وقيمة الدور الذي تلعبه في مسار تأسيسنا للحياة. إنَّها بمثابة الموجّه لفكرنا، ولذلك اعتبرها جيمس فعالة وناشطة[68].

ولعلنا الآن على دراية كافية بكون الحياة مكوَّنة من تفاصيل، مهما بدت في الصغر من ناحية الوظيفة إلا أنَّها تبقى ذات قيمة فعالة في تقريرها للحياة. إنَّها بلغة الفيلسوف الأندلسي **ابن باجة** «**الإنسان فيه أمور كثيرة وهو إنسان بمجموعها**»[69] وبتعبير **ابن عربي** «**انطوى العالم الأكبر في الجرم الأصغر**»، إنَّ العالم يسكنه تعدُّد كبير شأنه شأن ذات الإنسان، فأنت لا تستطيع أن تنفي عنها جزءاً أو تفصيلاً صغيراً منها، وكلُّ محاولة لفعل ذلك يترتب عنها تغيير في السلوك وطريقة التفكير، فما بالك لو كان الحديث عن الحياة جمعاء «**إنَّه يبين كيف أنَّ شيئاً ليس كافياً للحياة في حد ذاته، قد يكون على الرغم من ذلك محدداً ناشطاً وفعالاً في تقرير الحياة في مكان آخر**»[70]. وكما عرف من قبل فإنَّ بحثنا في الحقيقة والواقع والبحث فيهما لطالما دفعنا هذا إلى صياغتهما في نظام ما، إنَّه نظام عقلي يحرّك في أذهاننا مدى نباهة قدره، ومع هذه النباهة فإنَّ فكرنا لا ينشغل بأمور الوحدة والتنوع وحدهما، وإنَّما بالكليَّة أيضاً، «**وفي ذلك، فإنَّ معرفة التنوع واختلاف**

67. المصدر نفسه، الصفحة 143.
68. المصدر نفسه، الصفحة 157.
69. الجابري، محمد عابد، نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، المركز الثقافي العربي، الطبعة السادسة 1993، الصفحة 200.
70. جيمس (وليام)، البراجماتية، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة 2008، الصفحة 158.

وتباين الحقيقة لا يقلّ أهميَّة عن فهم ارتباطها وعلاقاتها»،[71] وهذا الفهم بالتأكيد نجده يتماشى مع فضول المعرفة والعمليَّة النفسيَّة المنسجمة، ممَّا يشكل لنا مذهباً من نوع معيَّن. لكن علينا ألا نأخذ هذه الفكرة بتجلٍّ سلبي، بل إنَّها ما يجعل لنا الأشياء مركزيَّة من حيث تنوعها، فعند إدراكنا أنَّ العالم يكون حقيقة واحدة بكلّ مكوناته يصبح أفق البحث في هذا العالم أغنى وأخصب من حيث العطاء.

انطلاقاً من فكرة الوحدة كفكرة براغماتيَّة ستطرأ عدّة تغييرات تطبع الحقائق والوقائع، ولهذا سنطرح تساؤلين اثنين يربطاننا بالمحسوس بدلاً من المجرَّد، أو لنقل بلغة منطقيَّة سنجعل للمجرَّد النظري رسماً وحدَّاً ينتهي بنا إلى إمكان تعريفه. هذان السؤالان هما كالتالي:

- بأيّ معنى يكون العالم واحداً؟

- وما القيمة المضافة إثر هذا التوحُّد؟

بالنسبة إلى السؤال الأول، الجواب عليه هو رهين بفكرتنا نحن عن العالم وطريقة نظرنا إليه، من هنا كان على هذه النظرة أن تتمثل في إدراك **العالم كموضوع واحد للبحث**[72] وكم لهذه النظرة الأحاديَّة التي تدفعنا إلى الاعتقاد بعالم واحد تتماسك أجزاؤه من القدرة على الاستمرار.

أمَّا فيما يخصُّ السؤال الثاني، فإنَّ فضل هذا التفكير هو أن ننفتح على الكون بصورة أوسع ممَّا سبق، حيث إنَّنا إن تمكَّنا من الإمساك بتتابع أحداث العالم وظواهره وحصل لنا معرفة العلاقة التي تجمع بين الأجزاء كان الأمر كما عبرنا عنه سابقا معرفة تنوع الحقيقة وفهم علاقاتها، الأمر الذي سينتهي بنا إلى «**تتبُّع خطوط الفاعلية والتأثير التي تتماسك وتتساند بوساطتها**»[73] الأشياء. وعن طريق هذا الاستمرار في تتبع الأحداث سنجد ذواتنا تنتقل من شيء إلى آخر، إلى أن نقف على معرفة أكبر مدى من هذا الكون.

لذلك كانت هذه العملية تستتبع اكتشاف أنواع الارتباطات والعلاقات التي توجد بين الأشياء، وكيف أنَّ صورة شيء ما مجتمعة تشكّل نظاماً اندمجت فيه أشياء أخرى بضمها وصهرها مع بعضها بعضاً. لذا كان من الواجب الحذر في أيّ اختيار نقوم به بدراسة الظواهر ومحاولة بثّ نظامها في سياق علمي مفهوم. لأنَّ نتيجة الوقوع في خطأ لفهم سرّ علاقة ما أو البحث في صورة شيء ما، هذا الخطأ من شأنه أن يوقف استمرار البحث عن الحقيقة، ولربما قد ينتهي بنا إلى وضع العالم في أكثر من موضوع واحد للبحث. ومن هنا يبدأ الخلاف وليس الاختلاف، إنَّها عملية عبَّر عنها أرسطو بما تؤدي مقدماتها إلى نتائجها، ولعل هذه تُعدُّ

71. المصدر نفسه، الصفحة 160.
72. المصدر نفسه، الصفحة 163.
73. المصدر نفسه، الصفحة 165.

أهمَّ خطوة في المعرفة وفي فهم علاقات العالم، إنَّها معرفة وفهم لأسباب اختياراتنا، لأنَّه لا أحد يعرف نتيجة خيار لا يفهمه. وهذه المسألة تجري كذلك بالشكل نفسه على الصداقة ومشاعر الحب وغيرها من العلاقات التي تملأ العالم، فكما أنَّ الكون نظام كلّي؛ فهذه العلاقات أيضاً تكون نظاماً مصغراً في الكون، وهي كلها سعي لتوحيد العالم في طرق منتظمة محدَّدة بمجهود إنساني أصيل.

كما تُعدُّ كلُّ واحدة من هذه الأنظمة «**نظاماً يمثل نوعاً أو رتبة من الوحدة، تشدُّ أوتارها وتربط أجزاءها وفقاً لذلك النوع المعيَّن من العلاقة، والجزء نفسه قد يتمثل في نظم كثيرة مختلفة، كما يحتفظ رجل بوظائف مختلفة وينتمي إلى نوادٍ عديدة**»[74]. لهذا الغرض إذن اعتبرت القيمة النفعيَّة لفرضية «وحدة العالم» الاعتراف بالأنواع التي تغني الوجود بشبكة الارتباطات والعلاقات. إنَّها نظرة نظاميَّة إذا استقامت ولم يطلها خطأ «**لا تسمح لأيّ جزء فردي أوّلي من الكون أن يفلت**»[75].

إنَّ هذه النظرة النظاميَّة لا تنفلت من مبدأ التأثر والتأثير، إذ لا شيء يخرج عن هذه العملية، فأيّ نوع من التأثير من شأنه أن يفضي إلى غاية جعل العالم واحداً وأفضل.

فالمطلوب هنا بالدرجة الأولى لنقول بعالم واحد هو حسن الانتقال من جزء إلى جزء في اختيار العلاقات والروابط التي تمكننا من هذا الانتقال والتعبير عنه. وفي حالة عكس ما وقع، أي أنَّنا لا نصادف إلا نوعاً من التأثير الذي يذهب بنا إلى التفكيك والقطع والبحث عن الأمور التي من شأنها ألا تشكل لنا وسائل وصل وربط بين الأشياء يمكننا آنذاك الجزم بأنَّ العالم متعدّد. ولعل النتيجة التي سنخلص إليها بهذا التقابل هي: «**أنَّ الواحديَّة والتعدديَّة متوافقتان هنا في الرتبة أو الدرجة على الإطلاق**»[76] فإن أخذنا هذا التوافق بين المتعدّد والواحد كظواهر، فسنجد أنَّ **وليام جيمس** كان مصيباً في وضعه لهذين المتقابلين، ومن هنا نضرب مثالاً كدليل على صحة هذا الفرض. فحسب قوانين الفيزياء لا وجود للبرد، لأنَّ البرد في الأصل هو نتيجة أو حقيقة لغياب الحرارة، كذلك القانون نفسه ينطبق على الظلام الذي هو في الحقيقة غياب النور، فالنور والحرارة هما ما نستطيع دراسته وليس الظلام والبرد.

ومن خلال هذا المثال يمكن أن ننتقل إلى الحديث عن نظم التأثير واللاتأثير **التي تدخل تحت المشكلة العامة لوحدة العالم العليَّة الغائيَّة**،[77] حيث إنَّ الكثير في ظاهره يؤدي بنا إلى الواحد في عمق اكتشافه، ويرجع سبب افتراضنا هذا لقول **وليام جيمس**: «**إنَّ أهمَّ نوع من الوحدة يدرك بين الأشياء، من وجهة**

74. المصدر نفسه، الصفحة 167.
75. المصدر نفسه، الصفحة 167.
76. المصدر نفسه، الصفحة 169.
77. المصدر نفسه، الصفحة 169.

النظر البراجماتيَّة هو وحدتها الجنسيَّة (النوعيَّة الجامعة الشاملة)»[78] ومهما بدت لنا بعض الأشياء غامضة ومعقدة لإدراكها، هنا لا يسعنا إلا أن ننظر في قضية الغاية أو الهدف منها، فكُل هدف صغير يصبُّ في غاية أسمى كليَّة، فما من شيء سواء كان متفرداً أو متميزاً إلا ويصب في مصلحة العالم العامَّة، بتأثيره على قضاء منفعة أو في بلوغ هدف مشترك. وفي النهاية، كلُّ الأهداف ستنتهي إلى دائرة «العالم واحد» كغاية كبرى بتعدُّد ظواهره وتميز بعضها عن بعض لكونها لا تتكرَّر.

إلى الآن نكون قد استقرأنا فكرة العالم الواحد، إنَّه عالم بمجموعه، أي بما هو متعدّد (بخيره أو شره)، هذا كله من شأنه أن يوضح لنا الصورة الجماليَّة التي تظهر في اتحاد الأشياء فيما بينها، ممَّا يفضي في النهاية إلى القدرة على إدراكها، فالأشياء تتآلف لتسرد لنا قصتها، هذه القصة هي الغاية التي انتهت إليها؛ الأمر الذي لزم عنه أن تقدّم لنا إمكانيَّة معرفتها وتفسيرها باستنتاجها والاستدلال عليها، وأحياناً بالإيمان بها والوقوف عند هذا الإيمان.

4 - التفكير البراغماتي وتعدُّد الأنماط

لقد رأينا من قبل كيف أنَّ الطريقة البراغماتيَّة من شأنها في نهاية المطاف أن توجهنا نحو نظرة تعدُّديَّة للعالم، فالعالم أجزاء متعدّدة وبين هذا التعدُّد والتفكُّك يبدو أحياناً كأنَّه ليست هناك أيُّة وسيلة ربط فيما بينها سوى محاولة التنسيق أو التوفيق التي تتمُّ غالباً بالوصل فيما بينها. «**وجهة النظر التعدديَّة هذه، لعالم ذي تكوين إلحاقي إضافي، هي وجهة نظر تعجز البراجماتيَّة عن نبذها من الاعتبار الجدّي**»[79]. إلا أنَّ هذه النظرة الأحاديَّة من شأنها أن تفيد معنى العالم الواقعي والحقيقي، وفي مقابل هذا التصوُّر ستسقط قيمة فكرة «**العالم السرمدي**»، لأنَّ هذا العالم السرمدي الذي من المفترض أن يكون نظاماً كاملاً أصبح يبدو لنا هنا ناقصاً. والمقصود بناقص ليس بمعنى أنَّه يفتقد أحد أجزائه، وإنَّما بالمعنى الذي يفهم منه أنَّه قابل لأن يُعدَّل أو تدخل عليه عوامل أخرى، كذلك معرفتنا أيضاً؛ لكن متى نقول عنها إنَّها بلغت مرحلة النضج الفكري؟ ومتى نعترف أنَّ معارفنا حصّلت كمالاً؟

بالنسبة إلى الفيلسوف البراغماتي هذا يحدث حالما تقودنا معرفتنا هاته إلى **البداهة أو التفكير المنطقي**[80]. إنَّه لمن الصدق أن نقول إنَّ معرفتنا دائماً «**تزداد وتنمو في نقاط، في مواضع، في مجال**»[81]، لكن كيف يتحقق الكمال الذي قصدناه في أوَّل الكلام؟

78. المصدر نفسه، الصفحة 170.
79. المصدر نفسه، الصفحة 199.
80. المصدر نفسه، الصفحة 199.
81. المصدر نفسه، الصفحة 199.

أولاً وقبل كل شيء يجب أن ننتبه إلى أنَّ المعرفة لا تنمو من اللَّاشيء، بل على العكس، فهناك أرضَّية سابقة تشكّل صورة لمعارفنا القديمة (القبلية) حاضرة، ومع إدراكنا لمفاهيم ومعلومات جديدة وباستيعابنا لوجهات النظر المختلفة والانتباه للفروق الحاصلة فيما بينها، سنلاحظ أنَّ معرفتنا القديمة ما زالت قابعة في الذهن، لكن بالتدريج سنبدأ بتنظيم أفكارنا وآرائنا السابقة إلى جانب ما استحدثنا معرفته أو المعرفة به، تماماً كما أنَّ الانطباعات والتصوُّرات القبليَّة لشيء ما مع حدث آني يقع له، من شأنهما أن يؤديا إلى تفسير مختلف وإعادة النظر في المسألة المتعلقة بهما، ولربما ننزاح عنها بالرغم من صحتها فقط للانطباع الذي تركته لدينا في الذهن.

لعل هذا يبيّن عظمة الدماغ (العقل) الذي نملكه، فالعقل إذا صحَّ التعبير يُعتبر أفضل معالج للعمليات وأفضل مبرمج لها، لكن يبقى في هذا الجهاز محطات تختلف عن غيرها من جهة الوظيفة. هذا الاختلاف هو غالباً ما يكون سبب نموّ عقولنا في مواقع معينة أكثر من غيرها. ولهذا السبب وضع علماء النفس تقسيماً لشخصيَّة الأفراد بين ثلاثة أشكال، إذ هناك الشخص البصري والشخص السمعي ثم الشخص العاطفي. كلُّ واحد من هؤلاء تختلف طرق استجابته مع العالم الخارجي. وبالرغم من هذا كله تبقى الخزينة العامَّة للأفكار تحوي النصيب الأوفر ممَّا هو قديم، وهو ما عبَّر عنه الفيلسوف الأمريكي بقوله: «**إنَّنا نحتفظ بقدر كبير من معرفتنا القديمة بلا تغيير، وبعدد كبير من تحيزاتنا ومعتقداتنا القديمة بلا تعديل، ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً**»[82]. وعلى هذا الأساس كان جهدنا في محاولة لربط الأشياء وإعادة صياغتها وتطويرها لحدٍّ ما قريب أكثر ممَّا نبذل في سبيل التجديد، وهذه الجدَّة التي أصبغناها لوناً وهميَّاً هي في الأصل تصبغنا أيضاً.

بعبارة أدق؛ إنَّنا نجعل ماضينا يسكن حاضرنا، فلا هو قديم يمضي، ولا هو جديد خالص يحضر، إنَّه يبقى جِدَّة قائمة على معطيات الماضي وأغلب الظن هذا ما يجري معنا دائماً. إنَّه «**ماضينا الذي يقوم بنوع من الإدراك الباطني [...] فقلَّما يحدث أنَّ الحقيقة الجديدة تضاف خاماً خالصة من الشوائب أو فجَّة. وإنَّما في الأغلب عادة ما تطمر مطبوخة، إن صحَّ هذا التعبير، أو تنضج «كاليخنة» في مرق قديم**»[83].

إذن، الحقائق الجديدة هي في الأخير ناتجة عن خبرات جديدة في حقائق قديمة، وبين هذا وذاك تنشأ علاقة تبادليَّة تفاعليَّة فيما بينها. فهل نفهم من هذا أنَّ هناك أنماطاً قديمة من التفكير ما زالت حاضرة بيننا؟ وأنَّ هناك طرق تفكير بدائيَّة مستمرَّة معنا؟

إنَّ الجواب بالنفي على مثل هذا السؤال هو حجَّة على كذبنا ودليل شاهد علينا. أمَّا إذا كان الجواب بالإيجاب فهذا يبدو ذا وقع على الإذعان للماضي والاستسلام أمام خطوطه العريضة التي هي أفكار سادت

82. المصدر نفسه، الصفحة 201.

83. المصدر نفسه، الصفحة 201 - 202.

وما زالت سائدة لهذه اللحظة. من هنا أطرح سؤالاً حول ما نحن عليه، وما الذي تغيَّر في ساحة الفكر مع **وليام جيمس؟** وما نوع الجدَّة التي نطلبها؟ وإلى ماذا سينتهي الأمر إن ظلَّ الجديد وليد القديم؟ يفيدنا **وليام جيمس** ببراعة تعبيره الأدبي فيقول: «**ومثل أصابعنا الخمس وعظام الأذن، ومثل زائدتنا الذنبيَّة الأصليَّة، أو خصائصنا العجيبة الأخرى، فإنَّها قد تبقى كشواهد لا تندرس ولا تبيد لأحداث في تاريخنا كجنس**»[84].

من هنا كان مبحث الفيلسوف في البداهة، فطرق تفكيرنا في الأشياء مردُّها في الحقيقة إلى الأجيال السابقة العهد علينا، والبداهة كطريقة من أحد طرق التفكير هاته شكَّلت مرحلة «**كبرى من التوازن في تطوُّر العقل الإنساني**»[85]. فهي لم تعد مجرَّد حكمة تضع الأمور في نصابها، إنَّنا عندما نتحدث عنها داخل حقل الفلسفة نقصد بها شكلاً من أشكال التفكير أو نوعاً من الممارسة الفكريَّة التي قصدها الألمان في كلمة «مفهوم»، وهذا أمر لا أختلف معهم عليه.

فكلُّ فيلسوف ينحت مفاهيمه التي تخدم أطروحته، هذه المفاهيم بدون الحاجة إلى الإشارة إليها هي ما يقدّم ويمثل لنا طريقة اشتغال الفلاسفة، حيث يقوم كلُّ واحد منهم بأسلوبه الخاص بإعادة التفكير في المفكر فيه، الأمر الذي من شأنه أن يفضي إلى وسيلة في معالجة الحقائق، ولهذه القضيَّة لا غرابة إن انصبَّ النظر أيضاً على **الخبرة**[86] ومكوناتها. فهي لا تأتي اعتباطاً وليست مخلوقة، وإنَّما هي مكتشفة وكذلك الحقيقة. بهذا تصبح الحقيقة هي حول شيء تدور بخصوصه، فلا غريب أن نجد مثل هذه الفكرة تحضر عند مفكرين معاصرين مثل **Vincent Ryan Ruggiero** يقول:

«**الحقيقة تدور حول شيء ما هي عليه الحقائق في ترتيبها بالضبط وتناسبها. اعتقاداتنا وتأكيداتنا هي صحيحة حينما تطابق الواقع، وتكون خاطئة عندما لا تطابقه ...، للنظر في الحقيقة فيما تهتمُّ به يكون بالنظر إلى الجواب الذي يلائم الواقع، إنَّه ما يمكن أن نعتبره الجواب الصحيح.**

84. المصدر نفسه، الصفحة 202.

85. المصدر نفسه، الصفحة 203.

86. ما الذي نعنيه بالخبرة؟ إنَّ أفضل طريقة للحصول على إجابة أن نسأل: ما الفارق بين حادثة غير مختبرة وبين حادثة مختبرة؟ إنَّ الأمطار التي نشاهد سقوطها أو نحسُّ بها مختبرة، بيد أنَّ الأمطار التي تسقط في الصحراء حيث لا يوجد شيء حي ليست مختبرة. وعلى ذلك فنحن نصل إلى نقطتنا الأولى ليس ثمَّة خبرة، اللهم إلا حيث تكون حياة، بيد أنَّ الخبرة ليس مساوية في الامتداد للحياة. فكثير من الأشياء لي ولا ألحظها، وهذه يشق عليَّ أن أقول بعض الأشياء التي لا أتذكرها تذكراً جلياً، قد لا تنتسب إلى عاداتنا. كالطفل الذي انكوى بالنار حتى ولو لم يكن لديه تذكر للمناسبة التي اكتوى فيها. انظر: تاريخ الفلسفة الغربيَّة، برتراند راسل، ترجمة فتحي شنيطي، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، سنة 1977، الصفحة 468.

- «المعرفة هي نوع خاص من العلاقة بين جزأين من الخبرة الخالصة، وعلاقة الذات بالموضوع هي علاقة مشتقة: فليست للخبرة فيما أعتقد ازدواجيَّة باطنيَّة من هذا القبيل»، المرجع السابق، الصفحة 367.

الحقيقة هي إدراك ووعي تمَّ بالاستكشاف بعد اعتراء الشخص فضول كبير وبذل مجهود جبَّار. الحقيقة ليست مرتبطة بمعرفتنا لها (كمعطى جاهز) ولا هي تتجلَّى فيما يمكن أن نقيسه بالأثر أو التحوُّل أو حالة الانتقال من الجهل إلى التأمُّل (الفكر الآمل)»[87].

وبالتالي تظلُّ خبراتنا خليطاً من التنقيب وتفحصاً للمظاهر، وملاحظات يشوبها الشكُّ والارتياب تطالب بالوضوح، كلُّ هذا قمنا بالتأليف فيما بينه، وهو ما شكَّل لنا خبرة بشيء ما بعد أن وضعنا سلسلة من المفاهيم المترابطة على نحو ما، فقابلنا هذه السلسلة بما نواجهه من الانطباعات، وعليه فهي ستشكّل بهذا لنا مقياساً لهذه الانطباعات.

فإن حدث وكان هناك ما يلائم فكرة لحلقة معينة من هذه السلسلة، فعلى الأرجح هذا ما يفسّر سبب حدوث الفهم. فهي تطبع داخل هذه الحلقة وفي علاقة بباقي الحلقات –لهذه السلسلة- نكون في مرحلة من «التأويل» و«البداهة»، وقد قصدنا إدراج المفهومين معاً، أي التأويل والبداهة على اعتبار أنَّهما معاً يمثلان طريقة في التفكير كنظام يفضي إلى «**استعمالنا أنماطاً وأساليب جدَّ مختلفة من تلك التي نعقل بها خبراتنا**»[88]، ولأنَّهما تعتمدان اللغة بشكل كبير جداً، وسواء أردنا أم أبينا ففي النهاية لا يسعنا إلا أن نعترف بالدور الذي يلعبه إدراكنا لهذه المفاهيم في إيجاد علاقة بينهما وفي استيعاب الانطباعات الباقية فينا، ولأنَّنا داخل سلسلة –نسق- من الحلقات فلا عجب أن نعقل هذه الانطباعات بعدَّة أوجه ذهنيَّة مختلفة. أو بلغة أخرى لقد حصل لنا إدراك لمعنى وعند حصوله لنا هو ما كوَّن لنا لغة، أي لغة هذا المعنى التي بداخلنا قيمنا ومبادئنا.

«العلاقات التي تربط الخبرات/التجارب يجب أن تكون هي بنفسها مختبرة، ونوع العلاقة المختبرة يجب أن يعتبر أمراً حقيقياً كأيّ شيء آخر داخل نظام معين[89]**»**

انطلاقاً من العرض الذي سبق قد يتوضح لنا قيمة البداهة في التفكير، وسنزيد بعده جملة من المعلومات لتوضيح ودعم أهميَّة هذا الطرح، لكن في البداية قبل بلوغ هذه المرحلة سيكون من الواجب الإشارة إلى خصائصها التي نثيرها في مفاهيم، من قبيل: الشيء ونفسه أو المختلف والنوع والجسم والتأثيرات العلية

87. Ruggiero (Vincent Ryan), «[...] The truth about something is what is so about it—the facts in their exact a - rangement and proportions. Our beliefs and assertions are true when they correspond to that reality and false when they do not … to look for the truth in such matters is look for the answer that fits the facts, the correct answer. Truth is apprehended by discovery, a process that favors the curious and the diligent. Truth does not depend on our acknowledgment of it, nor is it in any way altered by our ignorance or transformed by our wishful thinking», Beyound Feelings, a guide to critical thinking, Ninth Edition, published by McGraw-Hill, New York 2012, page 37.

88. جيمس (وليام)، البراجماتية، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة 2008، الصفحة 204.

89. «The relations that connect experiences must themselves be experienced relations, and kind of relation exp - rienced must be accounted as “real” as anything else in the system» james, william in the journal of philosophy, psychology and scientific methods, Vol 1, No 20, page 534.

والمتوهم ثم الحقيقي. وهذه المفاهيم كلها من شأنها أن تساعد في عقلنة ما سمَّاه صاحب البراجماتيَّة «**البداهة التقليديَّة**».

الأمر المتناقض في هذا الشق، هو أنَّنا نحن بصفتنا باحثين عن الحقيقة نعجز عن إدراك النمط المعتاد اليومي (الروتين) نفسه الذي نعيشه، إنَّنا الآن نعلم هذه المفاهيم، ولربما نعلم أيضاً كيفية اشتغالها، لكنَّنا لا نعلم بعدُ كيف نتجاوزها. إنَّنا نتناقض مع ذواتنا لحظة اعترافنا بأنَّنا نعرف ونملك المعرفة والشيء معاً، لكنَّنا لا نقوم بعمليَّة البحث إلا بالقياس مع ما هو موجود وملموس، وبالتالي تكون الحقيقة هنا مجازاً تعبيرياً للغموض ولما هو موجود، ولكنَّه لا يقع بين أيدينا، إنَّه كما نعبّر عنه ما غابت ذاته وبقي أثره.

يقول **وليام جيمس** بهذا الصدد: «**إنَّ مصلال الطفل يسقط من يده، ولكنَّ الطفل لا يبحث عنه. فهو بالنسبة إليه قد «اختفى» قد «راح» كما ينطفئ لهب شمعة، وهو يعود عندما تعيده إلى مكانه في يده تماماً مثلما يعود اللهب عندما يوقد ثانية**»[90].

إنَّ العيب في بحثنا عن الحقيقة هو أنَّنا عندما نغير في قصد معين، إنَّما نغير فقط في زاوية النظر. بمعنى أنَّنا انتقلنا من حلقة إلى أخرى، وهذا الانتقال بطبيعة الحال كما هو في سائر لحظات الفكر بالبحث عن المعرفة الحقة، تشوبه بعض التغيرات، لكنَّ الأساس الذي انتقلنا منه وإليه كان حاضراً منذ البداية معنا، لكنَّنا لم نوله اهتماماً كافياً كما في السابق.

إنَّنا دائماً نفكِّر في الشيء بعلاقة مع شيء آخر، إنَّنا نفكر في الجديد بعلاقة مع القديم، هذه العلاقة التي تشكّل المحور الأساس لكلّ تطور وتأويل ومنهج غالباً ما تتخذ أحد الأشكال التالية: إمَّا النقد، أو التطوير، أو التحليل، أو التفكيك، أو التركيب ...، هذه الخطوات العلائقيَّة التي إن نظرنا إليها أبعد ما أمكن نجدها في آخر المطاف تنتهي لتربطنا بشيء آخر. إنَّها تسكننا وقليلاً ما نعقلها. إنَّنا نلاحظ التغيرات التي تشوب نتيجة لها لكن لا ندرك المصادفة التي دعتنا إلى هذا الانتقال/ الاكتشاف. إنَّنا ندرك التغيير كحدث ولا ندرك سبب العلاقات التي كانت سبباً فيه، «**[...] فمن الجلي أنَّ فكرة كونه «شيئاً» في وسعه أن يدسَّ وجوده الدائم بذاته بين ترائيه أو ظهوره المتتابع ...، هذه الفكرة لم تطرأ على ذهنه**»[91].

90. المصدر نفسه، الصفحة 208.

91. المصدر نفسه، الصفحة 208 - 209.

إنَّ هذه الفوضى العارمة - صدّق أو لا تصدّق - هي ذات نظام. أجل فحتى **للفوضى نظام**،[92] وكلُّ ما هو مطلوب لمعرفة مداخلها ومخارجها قابع في «**كائن قادر على تركيز انتباهه والاحتفاظ بانتظام الأحداث**»[93]. وبهذه الطريقة كلَّما زاد فهم الإنسان للأشياء وقام باستيعابها توضَّحت له تلك العلاقة التي تترتب عنها خبرة ما ببقية الخبرات. وعلى اعتبار أنَّ **وليام جيمس** عالم نفس فهو يلجأ لخبرته التحليليَّة ليقوم بنوع من الإرشاد نحو نقطة القوَّة لدى الإنسان، إنَّها تلك اللحظة التي يمتزج فيها الألم مع الرضا والعجز مع القدرة والمستحيل مع الممكن، هذه هي اللحظة التي يكون فيها الإنسان في ذلك الجزء الهادئ فيه حيث ينجز أعظم اختباراته، إنَّها اللحظة التي تترافق وإيَّاها البداهة، وإلا فإنَّه منهك التفكير غارق في الانفعال «**لأنَّه يرى من وراء، ويجاوز ما هو راهن**»[94]. إذ في البداية على المرء أن يتقبَّل ذاته، ويتقبَّل العالم الخارج عنه لأنَّه غارق فيه.

إنَّه جزء من نظامه، فكيف عساه أن يقلق؟ ربما هذا القلق هو أنَّنا لا ندرك سرَّ ذلك الغموض فيه، والجزء المظلم منه داخل عقولنا، فلا غرابة إذاً من كلام علماء الإنسان لما جعلوا سرَّ فهم الذات هو في الغوص في عالم الغموض، وإن كان هذا العالم الغامض الآن أقلَّ مشاكلنا. لست أدري، لكن هل نحن الآن مدعوون للتقبُّل والرضا؟ بالرغم من الشكل الذي يبدو عليه الأمر أقرب للإقناع ولما فيه من نتائج ممكنة القياس، فالطرح هنا ليس غريباً عمَّا نحن بصدد دراسته، إنَّها البراغماتيَّة. فإن كان العكس فإنَّنا نجعل من المعرفة أو العلم بصفة محدَّدة دائرة من الجنون أو التيهان أو الارتياب ...، كما يجب ألَّا نفهم ممَّا سبق من كلامي أنَّه دعوى للاعتقاد بأيّ شيء، والتفكير فيه وربطه بضرب من ضروب الأحلام، كلَّا، فذلك سيكون «**أكثر الفروق بدائيَّة وغرارة**»[95]. كما يجب ألَّا نجعل التفكير والأشياء كلحظة من البحث عن خبرة نعبّر عنها بأنَّها أفكار فقط، بل هي أكثر من ذلك، إنَّها ما يوحّد العالم بشكل لا نظير له.

وكم يُعدَّ - اعتباطياً - من سوء الفهم إن أخضعنا مفهومي «التفكير» و«الزمان» لثنائيَّة المكان والزمان، لأنَّ في هذه المسألة سيقتصر القول على سؤال المقدار: أين بدأ؟ وكم مقدَّراً له أن يبقى؟ هذه هي مشكلة فهمنا، أنَّنا لا نعرف سبب خياراتنا، وبما أنَّه لا أحد يعرف نتيجة خيار لا يفهمه، كان الحلُّ مطروحاً في ماهيَّة البداهة وفي الحقيقة كمعنى.

يقول **وليام جيمس**: «**إنَّ كلَّ شيء يحدث لنا يجلب معه مدَّة مكثه وبعد امتداده، وكلاهما محاطان على نحو مبهم بإضافة أو بمزيد هامشي ينساب في المدَّة والامتداد الخاصَّة بالشيء التالي الذي يقبل**»[96]. إنَّنا

92. يقول وليام جيمس: «**إنَّ الفوضى فيها وحدة بحث مثل الكون المنظَّم سواء بسواء**»، البراجماتيَّة، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة 2008، الصفحة 163.

93. جيمس (وليام)، البراجماتيَّة، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة 2008، الصفحة 210.

94. المصدر نفسه، الصفحة 210.

95. المصدر نفسه، الصفحة 211.

96. المصدر نفسه، الصفحة 212.

نعيش في مكان يملؤه الفراغ، تماماً كما أنَّنا ندرك العلاقة التي تجمع بين الأشياء، إلا أنَّنا ننتهي إلى أن نكون أشخاصاً فاقدي الإحساس بالواقع والحقائق التي ترمز إليها هذه الأشياء.

إلى جانب هذه الأفكار المغلوطة التي نقع فيها، هناك قضية أخرى تتعلق بـ«الشيء» كمفهوم، ففي البداية نقول «الشيء» هو نفسه ثمَّ نعود مرَّة أخرى لنصوغ كلامنا في سياق ثانٍ لنقول: «الشيء ثانية» فتكون «ثانية» قصداً يفيد معنى ثانياً لأوَّل، وأغلب الظن الاختلاف هنا قائم في وجهة النظر. أو قصد لمعنى ثانٍ مغاير للأوَّل، وهنا المعنى يصبو إلى شيء آخر لذاته، والأمر يستمرُّ على نحو ذلك. فلمَ لا ننتهي إلى القول بـ«**الأنواع وتماثل النوع**» جاعلين منها «**طريقة تفكير مفيدة هائلة لتلمّس طريقنا المتعدّد؟**»[97].

من هنا كانت حاجتنا للمنطق في فهم العالم، فكما أنَّ النوع وتماثل النوع يعتبران أداتي المنطق، نفهم في هذا السياق أنَّه جاء في ظلٍّ من التعدُّد ليحقق لنا انسجاماً. وربَّما يقرأ هذا الانسجام بمعنى واحد، لكن أثير الانتباه إلى تلك الرموز المتعدّدة لأغراض المنطق، صورنة العالم في نمط عقلي أو تمييز الصناعة الفلسفيَّة عن المغالطات السفسطائيَّة جعل العالم أقرب للامتلاك في أشكال رياضيَّة، باعتبار أنَّ الرياضيات أكثر دقة وموثوقيَّة، ويضيف **محمد رضا المظفر** إلى اعتبار المنطق هو أداة يستعين بها الإنسان ليتفادى وقوعه في الخطأ، وهي أيضاً ما يرشده إلى تصحيح أفكاره، يقول: «**فكما أنَّ النحو والصرف لا يعلمان الإنسان النطق، وإنَّما يعلمانه تصحيح النطق، فكذلك علم المنطق لا يعلم الإنسان التفكير، بل يرشده إلى تصحيح التفكير**»[98]، من هنا كانت حاجتنا للمنطق تتمثل في تصحيح أفكارنا وتكفله ببيان الطرق العامَّة الصحيحة التي يتوصَّل بها الفكر إلى الحقائق المجهولة[99].

فإن حاولنا بعد هذه التعريفات المتعدّدة للمنطق النظر إليها بإمعان فسوف نجد كما لو أنَّها تحتفي بصدى صوت خافت. إنَّه ليس صدى الضمير أو صدى الذات الهامسة، وإنَّما المجاز هنا هو للعلّة الغائيَّة «**إنَّه التأثير العلّي مرَّة أخرى! [...] لأنَّنا لا نجد أناساً بدائيين يظنون أنَّ كلَّ شيء تقريباً له خطره وأهميته وقادر على أن يحدث تأثيراً من نوع ما. على أنَّ البحث عن التأثيرات الأكثر تحديداً يبدو أنَّه بدأ بسؤال: من؟ أو ما الذي يقع عليه اللوم؟ [...]. من هذا المركز انتشر البحث عن التأثيرات العليَّة**»[100]. وهي تبقى قويَّة الحضور في وجه كلّ التحديات التي تريد إحلالها أمام أمر آخر يُدعى **القانون**، لكنَّ هذا الأخير يظلُّ

97. المصدر نفسه، الصفحة 214.

98. المظفر، محمد رضا، المنطق، دار التعارف للمطبوعات، الطبعة الثالثة سنة 2006، الصفحة 11.

99. MURRAY, D. L, «What is the use of a logic which (1) cannot effect the capital distinction of all thought, that between the true and the false? (2) Is debarred by its own principles from considering the meaning of any real assertion? And (3) is thus tossed helplessly from horn to horn of the dilemma 'either verbalism or psychology'? », Pragmatism, london constable and company LTD, 1912, page 56.

100. جيمس (وليام)، البراجماتيَّة، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، سنة 2008، الصفحة 214 - 215.

حديثاً نسبياً. إذن، فالتأثيرات العليَّة والممكن والجسد والنفس والعقول وغيرها، هذه الأفكار ذات بُعد بداهي تعمل على توجيه التفكير للرهان على الحقيقة وعلاقتها بالواقع.

إنَّها تمارس علينا سلطتها ونفوذها لحظة تراخي قبضة النقد، ومع ذلك نجد أنَّ شكل انتقادنا لهذه الأفكار الحاكمة للبداهة أمر مستعص لكونها «**تتجلَّى كمرحلة محدَّدة تماماً في فهمنا للأشياء، مرحلة تشبع، بطريقة ناجحة نجاحاً لا قياسياً، الأغراض التي من أجلها نفكر**»[101]، من هنا حصلت على سيادتها -أعني الفئات البديهيَّة- إذ من الأرجح أنَّها نجحت في تحقيق هيمنتها بعد أن أثبتت صحَّتها «**بحقائق الخبرة المباشرة التي انطبقت عليها أوَّل الأمر**»[102]، فهي حققت توسُّعاً كبيراً إلى أن أضحت ركيزة في التفكير بها دون أيَّة وسيلة أخرى.

وبما أنَّنا لا ننكر أنَّ هذا التفكير البدهي القديم له هيمنته وسيادته، فلا مانع إذن من رجوع **وليام جيمس** إلى الجذع الذي يساعده في تحديد فئات البداهة المذكورة، وهنا نكون قاصدين الفلسفة المشائيَّة، فهي جعلت من الشيء «**كائناً أو جوهراً في الوجود، والجوهر الموجود موضوع تتولَّد فيه صفات وخصائص**».[103] هذه الفروق أساسيَّة، وهي أيضاً ألفاظ نافعة تعني ما تعنيه وظيفتها التوجيهية. فـ«الشيء» كاسم يدلُّ على قانون الربط بين الإحساس وانخراطه في الوجود، يُعدُّ أيضاً حيلة سامية للتفكير وطريقة للهروب من الذعر الذي تضعنا فيه النزعة العلميَّة، أي أن نكون مختزلين في فرضيات علميَّة نفكر انطلاقاً من إحدى نماذجها الصحيحة، وبالتالي نجعل كلَّ الظروف مترتبة عنها بشكل أو بآخر.

لهذا كان الخلاف أو الصراع بين العلم والبداهة، فالعلم صراحة له بسط كبير من السيطرة عن البداهة، فهو يتطوَّر فوق إرادة المرء، والخوف هنا يتجلَّى في أن تضيع كينونة الإنسان، فهو يلغي فكرة التأثيرات العلويَّة ليسنَّ بدلاً منها طريقة تفكير مختلفة، أشرنا لها سابقاً بالقانون.

انطلاقاً من هنا؛ نخلص إلى «**ثلاث مراحل أو ثلاثة أنماط من التفكير في العالم الذي نعيش فيه**»[104]، الأولى هي مرحلة البداهة وهي الأكثر توحيداً، لها ميزة السبق في إرساء أعمدة سلطتها واستغلالها للغة، أمَّا الثانية فهي النقد الفلسفي لما تحويه من دلالات على الحق، ثمَّ الثالثة هي مرحلة العلم التي رسمت لنا عالماً آخر لا تسكنه سوى تلك المعادلات والنقاط وغيرها من الأشكال الرياضيَّة، إنَّها مرحلة بما تجسّد كلمة قانون من معنى يفيد كلَّ تحول وظيفي.

101. المصدر نفسه، الصفحة 216.
102. المصدر نفسه، الصفحة 218.
103. المصدر نفسه، الصفحة 219.
104. المصدر نفسه، الصفحة 223.

باختصار، إنَّنا لا يمكن أن نقدّم إحدى هذه المراحل على غيرها، ولا أن نقارن فيما بينها، إذ كلُّ مرحلة وحدها تظلُّ ناقصة. لهذا لم يكن أبداً من الصحيح أن نعتبر بحقيقة صحيحة يملكها أحد هذه الأنماط الفكريَّة قطعاً «**إنَّ البداهة أحسن لمجال من مجالات الحياة، والعلم أحسن لمجال آخر، والنقد الفلسفي لمجال ثالث [...] إنَّها جميعاً ليست سوى طرق للإدلاء بنصيبها، ولا سبيل إلى المقارنة إلا من وجهة نظر نفعها وفائدتها فحسب**»[105].

بل إنَّ الصحيح الوحيد الذي يجب أن نعرفه هو الواقع أو الحقيقة، والحقيقة الوحيدة هي الواقع المحسوس الملموس، بما فيه من دفقة شعوريَّة يغذيها الإحساس والانفعال النفسي. إنَّها الطاقة بصفة عامَّة التي تخولنا إمكانيَّة قياسها ووصف التغيرات التي تطرأ وتبدو لنا، وبما أنَّ الإحساس والانفعال يطرأ نتيجة «**للفيض أو الوفرة أو الإسراف والتبذير قد يكون في نهاية الأمر مفتاح الحقيقة**»[106] كما عبَّر عنه **وليام جيمس**. ولعل هذا كان سبب اختياره للقول:

«**إنَّ البداهة أو العلم أو الفلسفة الدقيقة، أو العلم فوق النقدي، أو الفلسفة التمحيصيَّة أو المثاليَّة، كلها تبدو ناقصة الصحَّة في ناحية ما، وتترك شيئاً من السخط أو عدم الرضا. ومن الجلي أنَّ الصراع الناشب بين هذه النظم المتباينة الشديدة الاختلاف يحملنا على أن نفحص بدقة وإمعان فكرة الحقيقة ذاتها، لأنَّنا في الوقت الحاضر ليست لدينا فكرة محدَّدة عمَّا يُحتمل أن تعنيه الكلمة**»[107].

إذن، نستنتج ممَّا سبق أنَّ البداهة شهدت لحظات تشكيك في ظلّ المواجهة العلميَّة، كما نستنتج أنَّه ليس لكلّ نمط من أنماط التفكير التي ذكرناها القدرة على إقامة حجَّة على صحَّة دعواها بشكل مطلق، هذا الأمر يذكّرنا أنَّ البراغماتيَّة تجعل من نظرياتنا مجرَّد أساليب عقليَّة لملاءمة الحقيقة، «**إنَّه مهما كانت الحقيقة تعني، فنحن لا نملكها بعد**»[108].

إنَّ أيَّ تفكير مهتم بحقيقة الاعتقاد الفلسفي هو تفكير فلسفي. لربما يأخذ هيئة قبول اعتقاد كحقيقة وكتحقيق له في علاقات منطقيَّة مع باقي الاعتقادات، وهذا ربَّما يُسمى **بتحرّي الاعتقاد**. أو ربما يمكن أن يأخذ هيئة استشكال للاعتقاد ومحاولة تحديد إن كانت ترتكز على أسباب جيّدة، وهذا ما يُسمَّى **اختبار الاعتقاد**[109].

105. المصدر نفسه، الصفحة 227.

106. المصدر نفسه، الصفحة 228.

107. المصدر نفسه، الصفحة 229.

108. Ruggiero (Vincent Ryan), Beyound Feelings, a guide to critical thinking, Ninth Edition, published by McGraw-Hill, New York 2012, page 38.

109. Monroe C and Elizabeth lan BEARDSLEY, philosophical thinking, an antroduction, look at philosophical examination, printed in the United States of Amirica 1965, page 5.

على سبيل الختام

بعد هذا التطواف النظري والفلسفي يمكننا أن نجمع القول إنَّ مشروع البراغماتيَّة عند **وليام جيمس** إنَّما هو مبني على نظرية المعنى والحقيقة، وهو الحلُّ للصراع المتصاعد بين العقلاني والتجريبي، وهذا يعني أنَّ رؤية وليام جيمس المنهجيَّة والفلسفيَّة تتأسَّس على رؤية تؤمن بالتعدُّد والتنوُّع والانفتاح على العالم واستحضار خصوصيَّة الذوات والأفراد وشروط إنتاج المعرفة، قصد بناء الحقائق بطريقة تفاعليَّة، ومنه يتوضَّح في معنى من المعاني لكي تكون براغماتياً يجب أن تقبل العيش بدون ضمانات أو تأمين، يجب أن تعيش على مبدأ التجربة[110]. إذن، ما معنى الحقيقة كإثبات وتوسط وكتفكير في تعدُّد الأنماط الإنسانيَّة؟

وهكذا فالخلاصات التي يمكن أن نخرج بها من خلال هذا التطواف الفلسفي والنظري في نصوص وليام جيمس المكتوبة باللغة العربيَّة والأجنبيَّة هي كما يلي:

- على الفلسفة أن تدلَّ على ما تعنيه الحياة، ولتحقيق ذلك سخَّر وليام جيمس البراغماتيَّة كوسيلة لها، وأفضل خيار ممكن.

- قيمة الأفكار تتجلَّى بوضوح فيما تحققه من منفعة.

- ليس هناك مذهب واحد ووحيد مالك للحقيقة النهائيَّة، وليست هناك حقيقة نهائيَّة، وأفضل طريقة للاقتراب من الحقيقة - ولكي تتَّسم نظريتنا بقدرة إقناع وانسجام- هو بانفتاح الفرد على فكرة تعدُّد مصادر المعرفة ومراجعها.

- إنَّ الفيلسوف الحق هو الذي لا تتعارض مبادئه الدينيَّة مع العقليَّة، بل الأصحُّ أن يتكامل المبدأ الديني مع العقلي، فالأوَّل كموجِّه نفسي (وجداني) ومحقق للاستقرار، ممَّا يجعل الفرد في جوٍّ من الرضا والاطمئنان بما يقوم به، والثاني يمدُّنا بالقدرة على الانتقاد والتحليل من أجل تعميق المعرفة وانتشال الذات من أوهام الميتافيزيقا التي تستهلك الفرد وقدرته على الخروج من حكم العادة وسلطة التقليد من أجل اكتشاف نفسه وبلوغ السعادة المنشودة.

---

110. Leclercq, Bruno, Phénoménologie et pragmatisme: y a-t-il rupture ou continuité entre attitudes théoriques et attitudes pratiques? Université de Liège, Bulletin d'analyse phénoménologique IV 3, 2008 (Actes 1), page 102.

- «Chez Schiller, cependant, le pragmatisme se double d'une «théorie génétique de ce qu'on entend par vérité»: «Le pragmatisme nous dit incidemment ce qu'est la vérité en disant comment on y parvient». Ce que doit étudier une théorie de la connaissance, ce sont les processus réels de « validation». Leclercq, Bruno, Phénoménologie et pragmatisme: y a-t-il rupture ou continuité entre attitudes théoriques et attitudes pratiques? Université de Liège, Bulletin d'analyse phénoménologique IV 3, 2008 (Actes 1), page 102.

- لا حاجة ليكون هناك اختلاف بين مَنْ هو ذو طابع تجريبي مع مَنْ هو ذو طابع عقلي، لأنَّ كلًّا منهما ينطلق في دراسة موضوعات الوجود بما يمدُّهما به العقل من آليَّات وأدوات استوحاها من العالم الخارجي. فطبيعة الاختلاف هنا ستكون مجرَّد رأي أو نزعة مزاجية لا تليق بالشخص في أيّ موقف تكون الحقيقة الحقة هي المطلوب.

- نظام الكون مفتوح على التأويل والتفسير، وأكبر الحجج إقناعاً لا تعني نهاية لإمكان بلوغ معرفة أخرى مغايرة، فنحن نسلّم بحجج افتراض معيَّن، لأنَّنا لم نكتشف بعدُ تأويلاً أفضل أو طريقة لانتقادها.

- توجد الحقيقة في علاقة مع الواقع واتصال معه وارتباط بالحياة، حيث تخلق لنا إحساساً وشعوراً بها.

- البراغماتيَّة تحدّد كوسيلة للعمل والأداء، حيث تجعل للأفكار قيمة عمليَّة تتخذ شكلاً وسطياً بين متناقضين لحلِّ النزاع الواقع بينهما، وتمام الظن أنَّ هذين المتنازعين هما ما يقصد بهما وليام جيمس أصحاب المذهب العقلي والمذهب التجريبي.

- هناك بعض الأسئلة التي يجب على البراغماتي عدم طرحها، لأنَّ طرحها لن يغنيه ولن يفيده في شيء، وإنَّما يمكن أن تدخله في صراع الأفكار، ومن ثمَّة كان البراغماتي مطالباً بكشف الفرق العملي بين صحَّة فكرة ما وخطئها، انطلاقاً من أثرها الذي يجب أن يفتحنا على إمكان القياس.

- المعنى هو ما يفسّر طبيعة عقائدنا، بعدما حقَّقت لنا فعلاً معيناً، وصارت قاعدة له.

- إنَّ المعرفة لا تنبني إلا على أرضيَّة سابقة لها، وعالم التجربة هو ما يسمح لنا بتقييم الأفكار وتطويرها وجعلها أكثر ملاءمة للواقع عن طريق التنقيب والفحص والتحقيق والإثبات، الأمر الذي يضفي عليها خاصيَّة المشروعيَّة، فتحتل وظيفة وتؤديها، وهذا هو معيار الصدق فيها والصحَّة. وأمَّا الحق فيها فإنَّه يرتبط بمدى اتفاقها مع الواقع.

- الحقيقة حادثة، وليست قانوناً. بهذا المعنى تصبح الحقيقة مكتشفة ومرتبطة بقوَّة مدى قدرتنا على إقامة الحجَّة والدليل.

- الأفكار هي أدوات للعمل والأداء، وهي دائماً مطالبة بالتمثيل وتعزيزها لنفسها وتحققها وإقامتها للأدلة على صحتها. كما أنَّها يجب أن تمكننا من استشراف المستقبل.

- لم تعد المعرفة مرتبطة فقط بقدرتها على التحقق والإثبات، وإنَّما أيضاً على إمكان الاكتشاف والتطوير. فالتقاء الفكرة والموجود هو ما يمكّننا من أن نخلص لمعرفة معينة بعدما اتَّسمت أفكارنا بصفة التعقل والصدق ثم العقلانيَّة.

- الفلسفة ليست مجرَّد فكر عام بكلِّ أشكاله النقديَّة أو التأمليَّة وغير ذلك، وإنَّما يمكن للفلسفة -خصوصاً مع وليام جيمس - أن تضمَّ عمليات إجرائيَّة من أجل بناء المعرفة، وبهذه العمليات تستمدُّ مشروعيتها، أي صفتها الملازمة التي هي الحقيقة أو الحقيقي.

هذه الخلاصات والاستنتاجات المشار إليها، إنَّما تدفعنا إلى استشراف مزيد من التساؤلات والإشكالات التي ترتبط بمدار الفكر النقدي عند وليام جيمس، من خلال إنجازه على الفلسفة التطبيقيَّة (حقوق الإنسان، العدالة، التعدُّد الثقافي، وحدة الأديان ...)، وعلى مجالات التربية وعلوم المعرفة. فما هي مقوّمات فلسفة الدين عند الفيلسوف البراغماتي وليام جيمس؟ كيف يمكن تأسيس صورة عن التعدُّد الديني من خلال تعدُّد الأديان في إطار حقيقة مشتركة واحدة؟ كيف نحقق التوازن بين العقلانيَّة والبراغماتيَّة والإيمان؟

لائحة المصادر والمراجع

المصادر

- James, William, Essays in Pragmatism, Edited with an Introduction by ALBUREY CASTELL, hafner publishing company 1948, New York.
- James, William, Pragmatism, A New Name for Some Old Ways of Thinking, edition 10.
- جيمس (وليام)، البراجماتيَّة، ترجمة محمد علي العريان، تقديم زكي نجيب محمود، القاهرة. المركز القومي للترجمة، 2008.
- جيمس (وليام)، بعض مشكلات الفلسفة، ترجمة فتحي الشنيطي، مراجعة زكي نجيب محمود، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصريَّة العامَّة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، بدون سنة.

المراجع

- الجابري (محمد عابد)، نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، المركز الثقافي العربي، الطبعة السادسة 1993.
- راسل (برتراند)، تاريخ الفلسفة الغربيَّة، ترجمة فتحي شنيطي، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، 1977.
- مشروحي (الذهبي)، أطروحة دكتوراه بعنوان: النزعة البراغماتيَّة الجديدة عند رورتي، تحت إشراف محمد سبيلا، جامعة محمد الخامس، كليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، الرباط، شعبة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس، وحدة الحداثة وقضايا الإنسان المعاصر، 2004.
- المظفر (محمد رضا)، المنطق، دار التعارف للمطبوعات، الطبعة الثالثة 2006.
- BEARDSLEY Monroe C and Elizabeth Lane, Philosophical Thinking An Introduction, Harcourt, Brace and World, Printed in USA, Inc 1965.
- Evans, David H., william faulkner, william james, and the american pragmatic tradition, southern literary studies, Fred Hobson, Series Editor, louisiana state university press, 2008.
- Hookway, Christopher, logical principles and philosophical attitudes: peirce's response to james's pragmatism, the cambridge companion to william james, edited by ruth anna putnam, wellesley college, cambridge university press 1997.
- MURRAY, D. L, Pragmatism, london constable and company LTD, 1912.
- Ortiz, Claudia Alvarez, does philosophy improve critical thinking skills? Submitted in tottal fulfilment of the requirement of the degree of Master of Arts, Department of philosophy-Faculty of Arts, the University of Melbourne, february 2007.
- Putnam, Hilary, James's theory of truth, the cambridge companion to william james, edited by ruth anna putnam, wellesley college, cambridge university press 1997.
- ROBERT H. THOULESS, Straight and Croocked Thinking, London first published 1953.
- Rorty, Richard, philosophy and the mirror of nature, princton university press princeton, new jersey, 1979

• Ruggiero (Vincent Ryan), Beyound Feelings, a guide to critical thinking, Ninth Edition, published by McGraw-Hill, New York 2012.

لائحة المقالات

• Davidson, Donald, truth and meaning: (Sep. 1967), Published by: Springer, Vol. 17, No. 3.

• Galetic, Stéphan, Théorie et pratique chez William James, Université de Liège, Bulletin d'analyse phénoménologique IV 3, 2008 (Actes 1).

• james, william in the journal of philosophy, psychology and scientific methods, Vol 1, No 20.

• Leclercq, Bruno, Phénoménologie et pragmatisme: y a-t-il rupture ou continuité entre attitudes théoriques et attitudes pratiques? Université de Liège, Bulletin d'analyse phénoménologique IV 3, 2008 (Actes 1).

• Rydenfelt, Henrik, MEANING AND PRAGMATISM, James on the pragmatic consequences of belief, (DRAFT-May 2008).

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016

All rights reserved © 2016